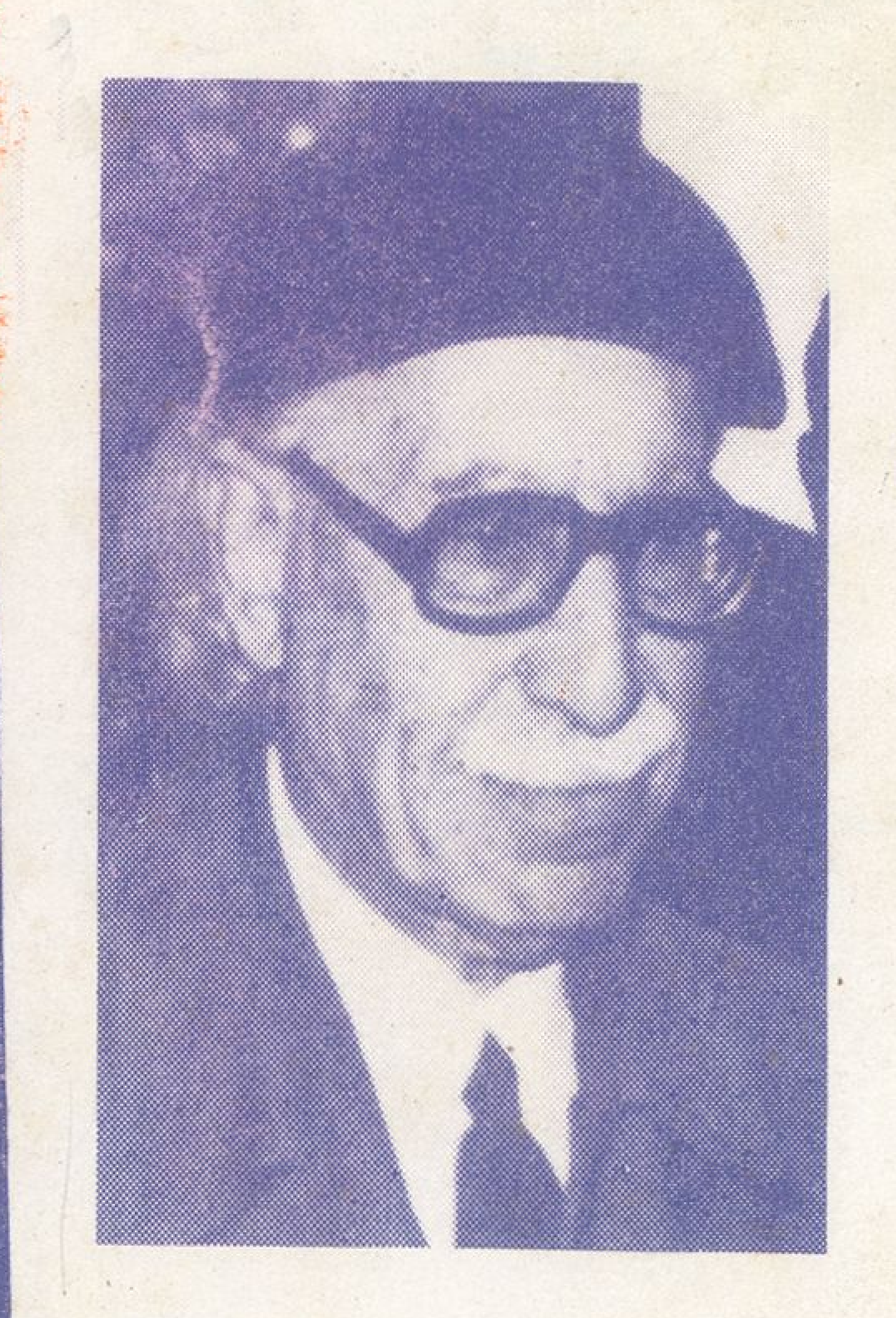
المكتبة الثقافية

توفيق الحكيم

(١٨٩٨ - ١٩٨٧)

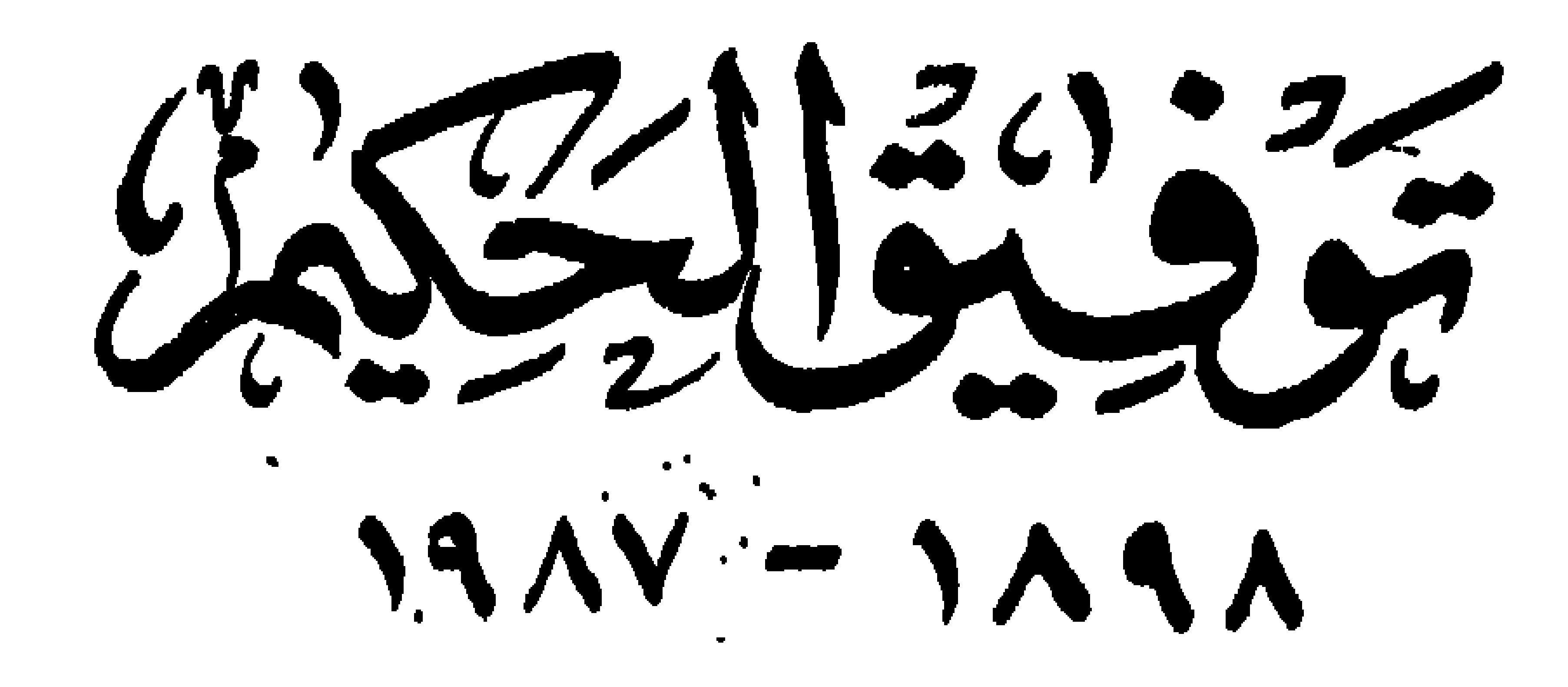


نبيل فرج



المكتبة الثقافية

٤٢٦



نبيل فرج



الاخراج الفنى والغلاف : محمد قطب

توفيق الحكيم
(١٨٩٨ – ١٩٨٧)
الحياة والفن (١)

شيعت مصر يوم الثلاثاء الثامن والعشرين من شهر يوليو الماضى ، فى جنازة عسكرية ، الكاتب الكبير توفيق الحكيم ٠

وتوفيق الحكيم نجم لامع فى سماء الثقافة العربية ، وصفحة ناصعة فى التراث العربى الحديث ، ظل متألقا ، قادرا على العطاء ، ما يزيد عن ستين سنة متصلة ، قدم خلالها الكثير من الأعمال الفنية المبدعة ، التى أثرت الحياة بأنضج الأفكار ، وتأثر بها أكثر من جيل من المبدعين فى انحاء الوطن العربى ٠

---

(١) مجلة « الدستور » ، لندن ، ١٠ أغسطس ١٩٨٧ ٠

ما أكثر المقالات التى ستكتب عنه على مدى المستقبل، وما أكثر الكتب والدراسات التى ستصدر عن أدبه الحافل بالقيم الانسانية ، وما أكثر الأعمال المسرحية التى ستعرضها له مسارح المستقبل ، كلما تهيأت لهذا المستقبل ظروف النهضة ، وعوامل الازدهار •

لقد كان الحكيم علامة فاصلة فى تاريخنا الأدبى • على أن فضله الغامر على الحياة الأدبية لا يقتصر على دور الرائد ، الذى ينحت فى الصخر ويغرس فى التربة ، لكى يمهد الطريق للمسرحية والرواية والقصة العربية فى تجاربها الحديثة ، وانما يشمل ، أيضا ، القيمة الذاتية الخالصة التى تنطوى عليها هذه الأعمال ، بأعلى المقاييس النقدية •

وفى الأسطر التالية نستعرض عطاء الحكيم ، الذى اكتمل برحيله : الحياة والفن •

ولد توفيق الحكيم فى الاسكندرية فى حى محرم بك ، فى ٩ اكتوبر ١٨٩٨ ، لأب يعمل وكيلا لنيابة مركز السنطة • ويذكر الحكيم فى كتابه « سجن العمر » ١٩٦٤ أنه هبط الى الدنيا صامتا ، دون بكاء أو صخب ، فحسبته أمه ميتا ، والتفتوا ناحيته ، فوجدوه يتأمل ضوء المصباح •

بدأ كتابة المسرحية وهو طالب فى الجامعة • ولم ينشر شيئا مما كتبه فيما بين ١٩٢٢ ــ ١٩٣٢ • وبعد أن حصل على ليسانس الحقوق سنة ١٩٢٥ ، سافر الى فرنسا

لاستكمال تعليمه ، ولكنه انصـرف الى دراســة الفن ، ومشاهدة المسارح ·

كتب فى فرنسا « اوبريت على بابا » ، ومثلتها فرقة عكاشة سنة ١٩٢٦ · وفى تلك السنة نفسها قدمت له فرقة عكاشة أيضا مسرحية « المرأة الجديدة » · ويعد الحكيم هذه المسرحية اسخف ما كتب ، لأن بطلها الشاب يسخر من سفور المرأة ، بدلا من أن يدافع عن هذا السفور ·

تعد روايته « عودة الروح » ١٩٣٣ التى كتبها بعيدا عن الوطن من قمم الروايات العربية التى بشرت بظهور زعيم يخرج من صفوف الشعب ، يمثل الكل فى واحد · وثابت ان الزعيم الراحل جمال عبد الناصر قرأ هذه الرواية وتأثر بها · بدأ الحكيم كتابتها بالفرنسية ، ليخاطب بهـا الأوربيين ، ثم عدل ذلك الى العـربية · وكان عنوانها « دبيب الروح » · وعلى خلاف مسرحية « أهل الكهف » ، قوبلت « عودة الروح » من شيوخ الأدب مثل المازنى والزيات بهجوم شديد ، قرر معه الحكيم سحب النسخ الباقية من السوق ·

كان الحكيم يرى أن الابتعاد قليلا عن الوطن يتيح للمرء رؤيته داخل النفس رؤية جديدة ، حية ونابضـــة وكاملة · ويعترف فى حديث مع محمد عبد الحليم عبد الله انه لم يعش داخل وطنه بالحــرارة والقوة والحب للوطن

مثلما عاش فى الوقت الذى كان فيه بعيدا ، هناك فى باريس ، حوالى ١٩٢٦ ــ ١٩٢٧ ·

عمل توفيق الحكيم وكيل نيابة فى أقاليم مصر ، متنقلا بين طنطا ودمنهور والزقازيق · ومن تجربته هذه فى الوظيفة كتب « يوميات نائب فى الأرياف » ١٩٣٧ ·

ظهرت أولى مسرحياته وهى « أهل الكهف » فى كتاب سنة ١٩٣٣ ، مستقيا موضوعها من القرآن الكريم ، لكى يؤكد أن قيمته لا تقتصر على الاعجاز اللغوى ، بل يشمل النموذج الفنى للقصص والأساطير · وتتناول المسرحية التناقض بين الوجود التاريخى والوجود الواقعى ، وبتفسير آخر الصراع بين العقل والقلب ، أو الشك والايمان ·

وفى ١٩٣٥ افتتحت الفرقة القومية نشــاطها بهذه المسرحية من اخراج زكى طليمات ، وبطولة : عزيزة أمير ، عمر وصفى ، عباس فارس ، وزكى طليمات ·

تعددت مصادر استلهامات الحكيم من العهد القديم « نشيد الانشاد » ١٩٤٠ ، والتراث الفرعونى « ايزيس » ١٩٥٥ ، والتراث اليونانى « براكسا أو مشــكلة الحكم » ١٩٣٩ ، « بجماليون » ١٩٤٢ ، « الملك أوديب ١٩٤٩ ، والتراث العربى والاسلامى « أهل الكهف » ، « شهرزاد » ١٩٣٤ ، « محمد سيرة حوارية » ١٩٣٦ «السلطان الحائر» ١٩٦٠ ، « مجلس العدل » ١٩٧٢ ·

ترتبط كل أعمال الحكيم بأحداث الحاضر ومشاكل العصر ، وينتمى مسرحه الى ما اصطلح النقاد على تسميته المسرح الذهنى ، الذى تغلب عليه الأفكار النظرية والقضايا المجردة ، ويصلح للقراءة ، أكثر مما يصلح للتمثيل والفرجة ·

غير ان تقديم بعض أعماله دحض هذا الحكم ، وأثبت أن مسرحه قابل للتجسيد على خشبة المسرح ، وأن القضايا النظرية التى يدور فى فلكها ، ويرى أن مكانها على الورق ، لا تطمس ، فى مسرحه، امكانيات الفرجة والتمثيل والتشويق المادية الحية ، التى يقبل عليها الجمهور ·

يؤمن بأن الفن قوة البشر الفانى ، وأنه حركة وجدة وقلق دائم وتجريب مستمر ، متحرر من الأسس والتقاليد المتوارثة ، دون أن يفقد ، فى هذه الصيغة ، عنصر الوضوح والسهولة ·

ومع هذا رفض مسرح العبث ، ليس من ناحية الشكل الفنى فقط ، بل من ناحية المضمون أيضا ·

وعنده ان الفكر والفن مملكة مستقلة ، تعادل مملكة العمل والفعل · وتنحصر رسالة الأدباء والفنانين فى « شئون الفكر الخالدة » ، لا أمور السياسية المتغيرة ·

يشغل موضوع العلم حيزا كبيرا فى انتاج الحكيم ، ان على مستوى الانتاج الفنى ، أو الكتابات النقدية · وتتناول مسرحيته « رحلة الى الغد » ١٩٥٨ التقدم العلمى فى علاقته

بالانسان • فى هذه المسرحية يرى الحكيم ان عصر الآلة يحطم انسانية الانسان ، ويجرده من كل العواطف ، ويحوله الى جهاز مشحون بالكهرباء • وبذلك وضع الحكيم انسانية الانسان مقابل التقدم العلمى ، أو ثمنا للتقدم العلمى •

طالب باعتماد مسارح الأقاليم على ما تملك من مواهب خاصة فى التمثيل والاخراج والتأليف ، وان يتاح لفن المدينة ان يحتك بهذه المسارح ، لكى يكسبها الخبرة •

كما طالب فرق الأقاليم ان تعرض نماذج من المسرح العالمى العظيم ، حتى تتعرف القرية على معالم الحضارة الانسانية •

على الرغم من أن مسرح الحكيم ينتمى ، من حيث الشكل ، الى المســـرح الغربى ، ويلاحق أحيانا أحدث التيارات الفنية فى العالم ، الا أنه حاول فى بعض مسرحياته ، مثل « السامر » ١٩٣٠ ، « والصفقة » ١٩٦٠ ، تأصيل هذا الفن فى البيئة ، باستلهام السامر الريفى فى المسرحية الأولى ، وادخال الفنون الشعبية المختلفة فى أطار المسرحية الثانية ، فى جوهرهما القديم الصافى ، بقصد الخروج من القالب العالمى ، واستحداث قالب أو شكل آخر ينبع من الأرض والتراث ، يعتمد على الحكواتى والمقلد والمداح ، ويرتفع فيه الجمهور المشاهد من سلبية الفرجة للتمثيل والايهام ، الى المشاركة الواعية فى نشاط الخلق الفنى والتقليد •

ويلتقى هذا الشكل البدائى مع أحدث اتجاهات المسرح العالمى ، كما نادى به بريخت••

ولكن شرط صلاحية هذا القالب ان يستطيع كتاب العالم أن يصبوا فيه أفكارهم وموضـــوعاتهم ، على نحو مانصب نحن أفكارنا وموضوعاتنا فى القالب الأوربى ·

هذا هو ، عند الحكيم ، الامتحان الحقيقى لقيمة هذه الاضافة ان تحققت ·

طرح الحكيم هذه القضية وناقشها فى مقدمة كتابه الهام « قالبنا المسرحى » ١٩٦٧ ، مرتئيا انه من الطبيعي — فى ضوء ظهور المسرح فى مصر بعد دخول الحملة الفرنسية — أن يبدأ الفن بالنقل والمحاكاة والاقتباس والترجمة ، وينتهى بالأصالة والخلق والابتكار ، النابع من صميم الوجدان ·

ومع هذا فلم يكن الحكيم يجد غضاضة فى الشكل او القالب العالمى ، لأنه نظر اليه على أنه من نتاج الجهود المتراكمة للشعوب كافة على مدى العصور ، ولايمانه كذلك بأن العمل الفنى ينتسب الى وطنه بقدر ما يعبر عن حياة هذا الوطن ، وعن طعمه الخـــاص ، ورائحته التى تنم عليه ، ولايغض من قيمته تعرضه لمؤثرات خارجية ، طالما سلم له هذا التعبير ·

ومن آراء الحكيم ان الصراع فى الابداع الخاص بنا يكون بين الانسان والزمن ، فهذا هو جوهر الفلسفة المصرية القديمة التى نجدها فى « عودة الروح » ، وليس بين الانسان والقدر الذى لا مفر منه ، كما فى المسرح اليونانى ، أو بين الانسان وعواطفه المتطرفة ، كما فى المسرح الأوربى ·

صاغ الحكيم فلسفته أو فكره النظرى ، المتمثل فى الاصلاحية الليبرالية ، فى كتاب « التعادلية » ١٩٥٥ ·
وتقوم هذه الفلسفة على أن الحياة تتحقق بالحركة الناشئة من تقابل القوى · وهى ، بذلك ، تقف الى جانب الصراع الدائم غير النهائى طلبا للتوازن ، مؤمنة بقدرة الانسان على تجاوز ضعفه ، بما يملكه من قوى أخرى معادلة ، كامنة فى قلب هذا الضعف ، وان توقف هذا التعادل يفضى الى الموت ·

عبر هذا المفهوم يرى الحكيم ان كل انتصار يحمل فى احشائه الهزيمة · كما أن الهزائم تولد الانتصار ، فى حركة متصلة ، أو دورات متعاقبة فى الامتداد الزمنى ·

ولأن كلمة « التعادلية » توحى بالتوازن والتوسط والسلبية ، فى آن واحد ، وهى بعيدة عما يقصد ، تمنى الحكيم ، فى الأحاديث التى اجريت معه حولها ، لو ان اللغة العربية تحوى كلمة أخرى تجنبه هذا الفهم الخاطىء لفكرته ·· وبعد صدور كتابه بسنوات عديدة توصل الى أن كلمة « المقاومية » قد تكون أوفى بالتعبير عما يريد ·

لم يستطع حبه العميق للحضارة الغربية وللتقدم العالمى أن يؤثر على ايمانه الوطيد بالقيم الروحية ، أو يطمس فى قلبه حبه للوطن والشرق · وقد أهدى كتابه « عصفور من الشرق » ١٩٤٣ « الى حاميتى الطاهرة السيدة زينب » ·

فى بداية الحرب العالمية الثانية كتب مقالات سياسية جمع بعضها فى كتاب « تأملات فى السياسة » ١٩٥٤ ، دافع فيها بحـــرارة عن الحـــرية والديمقراطية والاشتراكية والسلام ٠

وفى ١٩٥٧ أصدر بيانا لحماية السلام ، وجهه الى أدباء العالم ، نادى فيه بتوحيد جهود الأدباء والمفكرين من أجل حماية التقدم من الأخطار التى تهدد العالم بسبب نزوات السياسة ٠

حصل الحكيم فى ديسمبر ١٩٥٨ على «قلادة الجمهورية»، وهى أرفع وســـام بعد « قلادة النيل » التى تمنح للملوك والرؤساء ، وذلك عقب اتهامه بأنه اقتبس بشـــدة كتابه « حمار الحكيم » ١٩٤٠ من كتاب « أنا وحمارى » للكاتب الاسبانى خوان رامون خمينث (١٨٨١ ـ ١٩٥٧) ٠

وعندما أصدر كتابه « عودة الوعى » ١٩٧٤ ، الذى هاجم فيه عبد الناصر وعهده ، تأييدا للسادات وسياسته المناهضة لسياسة عبد الناصر ، أنعم عليه السادات بأرفع وسام وهو « قلادة النيل » ٠

الا أن ادانة الحكيم سياسيا ، لا تدحض دوره العظيم فى تجذير المعرفة والفن فى حياتنا المعاصرة ٠

اعتبر القلم ، وحده ، أداة تعبيره واتصاله بالقراء ، ولو أنه ظل حتى آخر حياته غير راض عنه ٠ لذلك كرس حياته للكتابة ، وحافظ على مستوى ابداعه الرفيع ، ولم

يتحول قط الى الأعمال التجارية الهابطة ، التى تدر مالا وفيرا ، مع ما عرف عنه من بخل ·

تتضمن بعض كتبه ، مثل : « فن الأدب » ١٩٥٢ ، « بين الفكر والفن » ١٩٧٦ ، « أدب الحياة » ١٩٧٦ وغيرها آراء نقدية لها وزنها ، وان كانت انطباعية · والحكيم من الأدباء العرب القلائل الذين لهم كتابات فى الفن التشكيلى والموسيقى تشف عن حساسية فنية مرهفة ، وخبرة جمالية أصيلة ·

وضعت وزارة الثقافة اسمه سنة ١٩٦٤ على مسرح محمد فريد ، فأصبح مسرح الحكيم ، وجعلت شعاره « نحو الأرفع والأنفع فى الفن » ، وقدمت عليه فى أولى عروضه مسرحيته الذهنية « بجماليون » التى تتناول حيرة الفنان بين كمال الفن ونقص الحياة · وبعد سنوات من انشاء هذا المسرح طلب فى منتصف السبعينات رفع اسـمه من على المسرح ، مادام لايزال على قيد الحياة ·

رشح أكثر من مرة لجائزة نوبل العالمية ، ولكنه تخوف منها ، لأنها تصدر عن دولة واحدة ، ذات سياسة خاصة · وطالب بأن تقوم هيئة الأمم المتحدة بمنح هذه الجائزة ·

نصـــوص وعروض

شـــمس النهـــار (١)

نشـــــر توفيق الحكيم فى جريدة الاهرام مســـــرحية « شمس النهار » التى افتتح المسرح القومى بها موسمه الأخير · وهى تقع فى ثلاثة فصول وخمسة مناظر ·

وشمس النهار هى بنت السلطان نعمان التى رفضت أن تتزوج من يتقدم اليها الا بشرط أن يفتح الباب أمام جميع الناس ، وتقوم باختيار من تراه أهلا لها من الخطاب ·

ولا شك أن هذا الموقف جاء بمثابة احتجاج على الحياة فى القصر التى تتضح لنا منذ رفع الستار · لقد بلغ الفســـــاد فى الدولة أوجه · فالوزير لا يعتمد على مرتبه الرسمى وحسب ، بل يأخذ كل ما يستطيع أخذه ، طلبا لحياة

(١) مجلة « الآداب » ، بيروت ، أبريل ١٩٦٥ ·

المتعة وسد احتياجات الأسرة · وهو ليس الوحيد الذى لا يعتمد على مرتبه فقط ، فان المملكة برمتهـــا من كبارها وصغارها تتخذ نفس الأسلوب ·

الوزير ــ ·· وأنت يامولاى الذى أردت ذلك ·

السلطان ــ أردت ماذا ؟

الوزير ــ قلت : هذه هى المرتبات الرسمية · وبعد ذلك كل واحد وشطارته ··

فكأن السلطان اس البلاء المنتشر فى المملكة ·

وقد كان هذا السلطان يعانى من مشكلة لا يجد لها حلا ، شغلت معظم الفصل الأول · هذه المشكلة هى ابنته شمس النهار التى لا يغريها فى الزواج ، كأختيها من قبل وككل بنات السلاطين ، مال أو جاه · لقد صممت على أن تقف فى مواجهة هذا العالم الـــكاذب العقيم ــ كما وقفت انتيجون أنوى مع الخلاف ــ تصنع حياتها بنفســـها حتى اضطر السلطان الى الرضوخ مرغما ·

وكانت الأميرة تسأل كل من تقدم اليها سؤالا واحدا يسيرا قررت أنه لا يمكن أن تهب حياتها لأحد دون أن تعرف منه الاجابة عليه · هذا السؤال : « ماذا أنت صانع بى اذا صرت زوجتك ؟ » · وكل من فشل فى الاجابة يجلد ثلاث جلدات ·

وما أجمل الردود التى قيلت لها وأروعها ، ستعبد ، ويلبى كل طلباتها ، ويشاد لها قصر على عمد من المرجان

فى جزيرة واق الواق ، وتوضع فى العينين وتحمى بالرموش ·· الخ فلم تكترث بشىء من هذا القبيل على الاطلاق ، ووقفت على الأرض الصلبة ازاء الاحلام المحلقة ، مما أثار الظن بأن الأميرة تعبث · والحقيقة انها جادة تماما فى البحث والاكتشاف ·

ثم تجد بغيتها فى شخص حقير يدعى قمر الزمان ، لا يخطر على البال انه سينال القبول · توافر فيه بعض نزوعات شمس النهار من اعطائها حريتها كاملة ومسئوليتها واثبات وجودها · وقد كونت مواقفه معها الحدث الرئيس فى المسرحية · رجل ذكى يقف هو الآخر على أرض الواقع الصلبة · شديد الشبه من نواح بشخصية « أبى الفضول » فى مسرحية الفريد فرج « حلاق بغداد » التى عرضها المسرح القومى فى الموسم الماضى ·

الا ان أبا الفضول الذى ملأ جنبات المسرح أشد جسامة من قمر الزمان (وشمس النهار) ، واشحذ وجدانا ·· وفى صراعه مع العالم الخارجى كان محتدما ·

اما القمر الزمان فصورة جميلة لابن الشعب الجرىء « الفهلوى » بكل كبريائه وطموحه ، الذى لا يحسن شيئا ويحسن كل شىء · لا يملك من الدنيا الا نفسه ، ولا يغريه الجاه أو الجمال أو النفوذ · يؤمن بأهمية ما يصنعه الانسان بيديه · يبدو لنا بسيطا فى مظهره ولكنه ثرى الاعماق ، سخى النفس ، يفيض بالحيوية ·

لعل قمر الزمان ، فى اقرب التفاسير ، ان يكون نموذجا للرجل الاشتراكى ، وشمس النهار نموذجا للمرأة فى المجتمع الجديد ، صاغهما توفيق الحكيم بقلم الفنان الملهم أكثر من قلم المفكر العميق الذى تصطرع شخصياته اثناء احتكاكها بالحياة ، وتصطدم أفكارها فيما بينها ٠

لم يأت قمر الزمان ككل الذين أتوا طمعا فى الأميرة ، انما لكى يستخدم حقه المشروع ٠ ومع اقتناعه بان الحاكم لابد أن يخرج من المحكوم ، فانه يرفض — فى حالة زواجه بالأميرة — ان يشتغل حاكما ، لأنه لم يكن محكوما جيدا ٠

ولو اننا عدنا الى « السلطان الحائر » لوجدنا ان نفس المشكلة طرحت على لسان الوزير (مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز ص ٥١) وهى أن « العبد لا يجوز له أن يحكم شعبا حرا » ٠

ايماءة صريحة فى « شمس النهار » لحالة الشعب من جراء مظالم الاستعمار التركى والأوروبى ، وانتهاب الحكام حقوقه ، ومعيشة الشظف فى الظلام — ولو أن وقائع التاريخ تدحض رأى الحكيم فيها ٠

ان قمر الزمان يؤمن بان قيمة الانسان مرهونة بعمله ، لذلك فهو يوجه نفس السؤال الى شمس النهار : ماذا هى فاعلة به ان تزوجها لأنه لا يعدو أن يكون حفنة من تراب ، يستطيع الصانع الماهر أن يصنع منه انسانا ٠ وباعتبار أنه

الآن حفنة من تراب يرفض الزواج الى أن تتم له انسانيته أولا ٠

وليس ثم طريق الى تحقيق ذلك سوى أن تترك شمس النهار ، التى منحها الثقة ، قصرها خلف ظهرها ، وتخرج مثله الى الحياة تكتشف طريقها بسيف جندى بسيط وثيابه ٠

وتبدأ فى الفصل الثانى رحلة شمس النهار مع قمر الزمان ، فنلقاهما فى الخلاء على مقربة من نهر وأشجار ، العالم حول شمس لأول مرة جديد بهيج ، يتعاونان لئلا يكون احدهما عالة على الآخر ٠

وخلال هذا المنظر ينثر توفيق الحكيم ، بشكل يقترب من المناظرة المباشرة، كثيرا من أفكاره التى يمتلىء بها الوقت الحاضر ٠ ان مسرح الحكيم كما هو معروف مسرح أفكار فى المحل الأول ، أكثر منه مسرح حياة ، رغم أنه لا يمكن انكار ان شخصياته التى تتنادى دائما بالحب مجبولة من لحم ودم ٠ وبسبب هذه الأفكار تخلف قراءته تأثيرا أعمق ٠

من هذه الأفكار ضرورة اشتغال المرأة بجوار الرجل التى تبدت فى اشتراكهما فى اعداد الطعام ، وما اهتدت اليه شمس من أن السيف البتار يمكن أن يستخدم فى صيد السمك من النهر ٠ أى تحويل أسلحة الدمار الى أدوات مفيدة ٠ وقدرة الانسان على التكيف مع الظروف وتحويل العلم النظرى الى عمل ٠ وان ما يصنعه الانســـــان جزء

منه • ومسئولية الفرد الكاملة عن الغير •• أفكار تنبع أنا من الأحداث ، نتلقاها تلقيا عذبا ، وتتوجه فى آن آخر الى النظارة أكثر مما تتوجه الى الشخص الآخر •

وبينما هما على هذا الحـال يقترب شـخصان ، فيسـرعان بالاختفاء • ومن مكمنهما القريب يريان معهما صرة يريدان تخبئتها تحت الشجرة لاقتسام ما بها • وبعد ضـبطهما يعرف قمر الزمان وشمس انهما ملاحظ خزانة الملك حمدان ومسـاعده ، وانهما ليس الوحيدين فى دولة حمدان السارقين، فكل واحد فى هذه المدينة جيبه فى يد الآخر، بما فى ذلك الملك الذى يؤول اليه فى النهاية كل شىء « جيوبنا كلها فى يد الأمير » ، مما يدفع بالحدث الدرامى الى الامام ويطوره ، ويبرز ملامح شخصية شمس أوضح ما تكون ، ويتكامل كيانها •

أصـرت شمس النهار وقمر الزمان اما على رد المال المسروق الى الخزانة ، والتستر على زلة المتهمين (مقابلة الشر ببعض الخير ـ احدى أفكار الحكيم)، واما على تسليمها الى العدالة ، وبالطبع لا تجدى اغراءات الملاحظ ومساعده لهما باقتسام الغنيمة لانهما نذرا نفسـيهما لأداء الواجب الذى ترى شمس ان مثوبته تكمن فى الجواهر التى تحلى دخيلة الانسان ، تشع وتضىء اذا اسـتمع الى صـوت الضمير أو صوت العقل •.

بذلك يسوى الحكيم بين الاثنين ، الضمير أو العقل ، فى تحقيق الحياة المثلى ·

ويتألف الفصل الثالث من منظرين ، تدور أحداث المنظر الأول فى قصر الأمير حمدان الذى لا تختلف مملكته عن مملكة النعمان التى تركتها شمس ضائقة الصدر ·

فى هذه المملكة الجديدة نجد نفس الفساد، بالاضافة الى مشكلة السأم التى يعانيها الأمير من حياته الرتيبة : ما عاد يستطعم طعاما أو يبتهج لترفيه ، رغم كثرة ما لديه من الكنوز : « المال يملأ خزائنى ، والحياة قاسية بالنسبة لى أيضا » · ان الأمير ، وهو من هو ، يعانى من الوحدة ، فقد كان لايزال عزبا ، ولن يطلب زوجا الا شمس النهار التى تناهى اليه أخبارها ·

ولما كان غير واثق من قبولها ، راح يسائل تابعه فى حيرة القلق : أى شىء يمكن أن يغرى المرأة لينفذ به الى قلب هذه الأميرة العنيدة ؟

وها هى شـــمس النهار تأتيه على قدميها مع قمر الزمان ، وتقف بنفسها على بعد ذراع منه ، فى ثياب جندى مدجج بالسلاح ، وباسم مستعار هو بدر ، كى يقرا العدالة برد ماله المختلس · فعم يسفر هذا اللقاء ؟

يقع بدر موقعا حسنا لدى الأمير بسبب رجاحة عقله ·· لذلك يعينه حارسا خاصا له ليفضى له بحقيقة الأميرة

التى ادعى انه يعمل عندها حارسا ـ الأمر الذى يوقظ فى قمر الزمان طبيعة الانسان ، ويستفزه ويحتج عليه ، فيتيقن لدينا توا ان الحب مس قلبه ، وانه متيم برفيقته على نحو صوفى برىء ، وان عواطف الانسان لا يمكن قهرها بحال ٠

اما المنظر الثانى فنرى الأمير حمدان وقمر الزمان وشمس النهار معا فى الخلاء ، وقد اشتد التنافر بين الأولين بحيث لم يعد الواحد بمستطيع تحمل الآخر ٠ وبعد اتجاه الأمير حمدان الى قصر النعمان من أجل ابنته ، ينشب عتاب حام بين قمر الزمان وشمس النهار ، نفهم منه أن قمر هو ، فى واقع الأمر ، الذى صنعها ، لا هى التى صنعت منه انسانا ٠

اجل ، فلولاه ما برحت شمس النهار قصرها ، ولما احتكت بالعالم ونالت هذه الخبرة : « الشعب اذن هو الذى يصنع الحاكم » ٠

ولكن قمر الزمان يفزع من اهتمام شمس بالأمير حمدان ، ويصفه وصفا يائسا ٠

قمر ـ نعم ٠٠ الأميرة والأمير ٠٠ هاهى الأوضاع قد عادت الى اصلها ٠

وتتهدم فى لحظات كل اجتهاداته ٠

وهذا غير صحيح ٠ ذلك أن الأميرة محيرة اللب بين الاثنين : الأمير « الذى صنعته بيدى ، كى يصنع بدوره بلده ويغير شعبه » ، وقمر الذى لا تعرف عنه شيئا ٠

عندئذ يكشـــف قمر لها عن حقيقته المرة · انه بلا أنساب ينتمى اليها ويفتخر بها ·

قمر ــ (يلتفت اليها بعنف) أولا اسمى ليس بقمر ·· ولا قمر الزمان ·· ولست بأمير · ولا شىء على الاطلاق · ولا أعرف من هو أبى ، ولا من هى أمى · نشأت بين الناس فى حى بسيط ·· الخ ··

فماذا يكون وقع هذه الكلمات على الأميرة ؟ لا تزداد الا تعلقا به وهياما ، وتمسكا برباط الزواج · غير انه يأبى أن يستسلم للعاطفة ، هو الآخر ، ويشردها معه طول حياته ·· يأبى أن تهبط شمس من عليائها الى الحضيض ، كأنه بجماليون يستنكر نقص الحياة التى نبضـــت فى تمثاله الجميل جالاتيا على كمال المثال (نفس المعنى الذى يتردد فى كثير من أعمال الحكيم) ، ويوجههـــا برواقيته ، أمام الاختيار الصعب بين الواجب والعاطفة ، الى اصـــلاح بلدها ·

شمس ــ وسعادتنا ؟

قمر ــ لنفكر فى سعادة الآخرين ·

وهو أحد الدروس التى سبق أن علم شـــمس النهار اياه ، ترد فى حوار مركز ·

بهذه التضحية ينتصر قمر الزمان على نفسه أيضا ·

وتنتهى المسرحية باستجابة شمس النهار الى صوت العقل لا القلب ، وايثار الوطن على نفسها(١) ٠

أرادت شمس فى البدء أن تمارس حياتها على نحو مغاير ، يكاد يكون مثاليا من جهة تضاده مع البيئة وفى مضمونه، فقابلت ما قابلت واصطدمت بالواقع ــ لم يكن الصدام عنيفا ــ ، وحين جابهت عالما سـيئا فى الداخل والخارج ، تغلبت عليه بفضل قمر الزمان ، ثم اتجهت الى القصر ليتاح لها الاصلاح ، وان كنت أرى أن عودتها الى القصر ، فى هذه المسرحية ، دليل على انها لم تستطع أن تتحـدى عالمها المحدد بالزمان والمكان ٠ ويمكن أن نرى نفس المعنى فى افتراق قمر عنها « أنا لا أستطيع الحياة فى القصور » ٠ وقد ظلت أطراف الصراع الباطنى أساسا فى حالة تعادل ٠

وكما عاد « أهل الكهف » فى هدوء الى مأواهم بعد أن أنكروا الحياة والناس من حولهم ، تعود شمس النهار أيضا من محاولة التغلب على عالمها ، ولكن بوازع مختلف ، وفهم أرحب ، وارادة أكبر من ذى قبل ٠

ويفترق البطلان الحبيبان : شـمس النهار وقمـر الزمان ، على ابتسامة حزينة ، يبقى أساها عالقا بنفوسنا أمدا طويلا ، لأننا احببناهما معا من خلال معايشتنا لهما ، ومخالطة مشاعرهما النبيلة ٠

---

(١) اجرى توفيق الحكيم تغييرا فى النص المقـدم للمسرح القومى ٠ وهو خارج عن حدود هذه المقالة ٠

((بنـــك القــلق)) (١)

استغرقت رحلة توفيق الحكيم فى الخلق الفنى حتى هذه الأوقات أكثر من أربعين سنة · لم يفت من عضـــده مصاعب المرحلة التاريخية التى عاصرها · وعلى الرغم من تقدمه فى السن، فلاتزال طاقة الابداع لديه على نفس المستوى· ولاتزال موهبته الأدبية تتدفق بالانتاج ، وتتألق بالقيم الفنية والفكرية التى لا يسع المرء حيالها الا أن يغض الطرف مؤقتا عن الخلاف البين الذى تثيره ، ويتساءل فى حيرة وزهو : من أى نبع ثرى يستقى هذا الكاتب الكبير فنه ؟!

والى جانب ذلك يعد توفيق الحكيم من أكثر الأدباء العرب المعاصرين ارتياداً للآفاق الجديدة فى الفن · وليس من الغلو أن أقرر أن كل عمل فنى يصدر له بمثابة حقل

(١) مجلة « الآداب » ، بيروت ، نوفمبر ١٩٦٦ ·

تجارب ، على المسرحيين أن يفيدوا من بعض نواحيه فى تحقيق الدور القيادى الذى يقع على المسرح عبء أدائه •

الا أن أهم هذه الارتيـــادات ما لازمه واطلق عليه « المسرح الذهنى » • وهو مسرح فكرى ، يطرح قضـــايا فلسفية تأثر فيها الحكيم بروح الشرق ، ترمز كل شخصية فيه الى معنى من المعـــانى المجـــردة : « أهل الكهف » (١٩٢٣) ، « شـــهرزاد » (١٩٣٤) ، « بجمـــاليون » (١٩٤٢) ، قدمهـــا للقراءة فى بادىء الأمر ، ثم قبلت الاخراج بعد ذلك على المنصة ، وتبين انها نماذج تحتذى للمسرح الحقيقى النابض بحركة الأفكار •

وحاول فى مسرحية « الصفقة » (١٩٥٦) أن يوحد لغة المسرح ، على نحو ما هى فى الآداب الأوروبية ، بتجريب لغة ثالثة قريبة مما يتخاطب به المثقفون • لغة تحافظ على سلامة الفصـــحى • وعند تســـكين أواخر كلماتها تنطق بالعامية • ويقلب حرف القاف الى جيم أو همزة تنطق بلهجة الاقليم الذى ينتمى اليه الفرد فى الريف أو الحضر • وبعد تسع سنوات ، وفى مسرحية « الورطة » (١٩٦٥) ، تسامح شيئا فى قواعد الفصحى ، واختزل أسماء الاشارة والاسماء الموصـــولة ، من أجل التبســـيط والاقتراب من العامية التى أخذ أصحابها الحقيقيون يرتفعون ، بعد ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، الى مســـتوى اجتماعى وثقافى لائق بانسانيتهم •

كما أن توفيق الحكيم ، فى مسرحية « رحلة الى الغد » (١٩٥٨) ، كان أول من استجاب للانتصارات العلمية الباهرة باطلاق الصواريخ الى القمر ، وان كان مضمون المسرحية يتناقض مع هذه الانتصـــارات فى الحاضـــر والمستقبل، فى ظل سيادة النظم الاشتراكية على ثلث العالم ، لأن ثمة موروثات قديمة غير علمية عند الحكيم تجفله من نتائجهـــا ، وتحول بينه وبين الوقوف على قمة الوعى بعصره ٠

وفى غضون النهضة الفنية الكبرى التى شهدتها بلادنا فيما بعد سنة ١٩٦١ ، تاركة كافة الزهور تتفتح من اليمين واليسار وما بين بين ، نظر الحكيم الى اتجاه صمويل بيكيت وأوجين يونسكو ، واستلهم من فنوننا الشـــعبية المصرية القديمة مسرحية « يا طالع الشجرة » ٠ خرج عن الواقعية تماما ، وتحرر من الأســـس التقليدية فى الفن ، وخلص ــ على زعمه ــ من المعنى والمنطق ٠ ولكن انى لفن القول ان يتحرر من الدلالة ؟! واقتصر فى معارضته لمأساة « الكترا » ، فى « الطعام لكل فم » (١٩٦٢) ، على احدى الحيل الفنية فى الشكل ، وامتحن بداخله فكرة العدالة والاخلاق على محك احتياجات العصر ٠

وغير ذلك كثير مما جعله يتبوأ أعلى مكانة فى الحياة الأدبية ، وجعل لأعماله مكانا اثيرا ، تستهل بنصـــوصه المواسم المسرحية ، وتفتتح بها الفرق الجديدة فى الاقاليم ٠

وقد كانت آخر هذه الارتيادات التى طلع بها على الوسط الأدبى فى القاهرة مسرواية « بنك القلق » التى عقد فيها مزاوجة بين المسرح ، الذى يقف فيه كالقمة الشماء ، والرواية التى أبدع فيهـــا « عودة الروح » (١٩٣٣) ، « الرباط المقدس » (١٩٤٤) ٠

والسرواية اطار جديد فى الأدب العربى ، لتوفيق الحكيم فضل المبادرة بممارسته واضافته الى رصيدنا الأدبى ٠٠ يتقيد هذا الاطار بأصول الشـــكلين المقررين للرواية والمسرحية من فصول ومناظر متساوية العدد ، وأسلوب الأداء ، والخصائص الفنية الأخرى ٠

يصف الحكيم فى الفصول الشخصيات من الداخل والخارج ، فى حاضـــرها وماضـيها ٠ ويمهد بالأحداث الروائية المليئة بذكى الالتفاتات ٠ حتى اذا بلغ الموضوع حدا يتحتم فيه على الشخصيات ان تلتقى لقاء مباشرا ، فى لحظات حاضرة ، تغيرت الاداة الفنية فى يد الكاتب ، بما يناسب الموقف ويجسده ، وتحول الى الحوار المركز ٠

أى ان استخدام السرد أو الحوار يجىء عن ضرورة يحتمها التصميم الذى رسمه الكاتب لهذا العمل الفنى الذى يدرج تحت المسرح أكثر من الرواية ٠

لذلك فليس صحيحا ماذهب اليه الدكتور عبد القادر القط دون أن يشرح وجهة نظره ويعللها من أن « كل منهما

تؤدى وظيفة مستقلة عن الأخرى دون أن يتم بينهما ترابط حقيقى » (روزاليوسف ، أول أغسطس ١٩٦٦) ٠

ان الترابط قائم هنا على التسلسل المنطقى والتكامل والتآزر ، بما يحفظ للأحداث صيرورتها واطرادها الدائم ، ويصون لكل شكل تقاليده، فلا يقص على ألسنة الشخصيات فى المســـرحية أحداثا قديمة ترد كالخبر مكانها الرواية ، ولا يضمن ســرده وتحليله فى الرواية حوارا موضـــعه المسرح ٠

وجلى أنه من تحصيل الحاصل ان يؤكد الناقد ، بعد ذلك ، ان هذا العمل الفنى نسيج واحد ، يؤدى وظيفة واحدة لا تنفصم أو تتجزأ فى السرد والحوار ، ولا يصلح الا على هذا النحو الخـــاص الذى اختــاره له توفيق الحكيم ، واستنزل فيه أفكاره ومعانيه ٠

والمسرواية احدى الأعمـال الفنية القليلة التى تدور وقائعها بعد الثورة ٠ أراد بها توفيق الحكيم أن ينتقد كثيرا من العيوب التى لا تزال تضرب اطنابها فى الحياة الجديدة ٠ يتناولها على ضوء ما يعتنقه من أن القلق « داء عصرنا الحديث الذى يشكو منه أكثر الناس » ٠ فيدفع بنمطين من الأشخاص هما أدهم سليمان ، العقل المفكر ، وشعبان جاد عوضين، العاطفة الجامحة ، لفتح بنك للقلق ، يتعاملان فيه مع هذا المرض الذى يقدر الحكيم سيادته على الحياة ٠

واذا كان هذا المرض سائدا فى كثير من بلدان أوروبا الغربية وامريكا ، والدول العربية المتخلفة ، فليس سائدا عندنا ونحن نثبت دعائم المجتمع الاشتراكى الجديد ٠

وحتى لو كانت طبيعة المرحلة الآخذة فى النمو التى نجتازها تسبب مثل هذا القلق ، وهو ما لا يستشف عند الحكيم ، فليس من صالحنا ان نقيم عليه بناء مسرحيا ، ونعلنه بهذا الشكل المتفزع فى مواطن عديدة من المسرواية توسع حجمه الطبيعى ٠

* * *

يفتتح توفيق الحكيم عمله الفنى بشخصية أدهم وهى تمر بحالة من حالات الفراغ والصعلكة ٠ وأدهم هذا شاب مفلس يعيش فى أحلامه الخاصة ٠ دائم السؤال عما يرى دائم الجواب ٠ يقف بدافع الفضول أمام ملهى يعرض ضمن العابه نمرة تلفت النظر : ناطحة سحاب من البشر ، يتسلقون أكتاف بعض ، وعلى قمتهم حسناء ٠ يفكر أدهم أن هذا البنيان المتماسك يمكن أن يهدم فى طرفة عين بأقل عطسة ، بأقل خلل ، و « ينقلب الموقف البطولى الى مهزلة » ٠

هل يرمز الحكيم بهذا المشهد الى الحياة الحديثة المعرضة كذلك أن ياتيها الدمار فجاة ؟!

ويتطرق التفكير بأدهم الى أن كل واحد ، سواء من

اللاعبين أولئك أو المشاهدين له، قصة قلقة · ثم يتابع مسيره على كورنيش النيل ، يطالع بعين الغد تلاقى العشـــاق بخلواته « أزمة مساكن ومواصلات ومواد استهلاكية » ·

وعلى أحد مقاعده الحجرية جلس منهك القوى ، يتنهد تنهدة ايقظت النائم الى جـــواره · « حملق كل منهما فى صـــاحبه · وهنا انطلقت من كل منهما صـــيحة فى نفس الوقت » ·

ومن هذا اللقاء الذى وقع بالمصادفة يبدأ المنظر الأول · انهما زميلان قديمان فى كلية الحقوق ، فصلا منها بعلل أقرب الى التهريج · ثم فرقت بينهما الحياة ، فاشتغل أدهم مخبرا صحفيا ثم فصل ، لأنه كان يؤلف الأخبار من عقله · واعتقل بسبب آرائه اليسارية المتطرفة · وتزوج شعبان أربع ثم تركهن جميعا ، وعمل فى وظائف مختلفة · «وأخيرا عشت منفردا كما ترى ، التقط اللقمة حيث أجدها » . ولا يكف عن البحث عن المتعة ·

عندئذ يقترح عليه أدهم أن يفتحـــا بنكا ، يتم التعامل فيه بالقلق ـــ هذه العملة الرابحة التى لا يسلم منها انسان· يعالجان العمـــلاء المرضى منه بأجر كبير ، ويعالجهما العملاء بأجر أقل ، والفرق هو مكسبهما · فتلقى الفكرة فى نفسه هوى ·

وبشروعهما فى تنفيذ الخطة ، فى الفصل الثانى ، يكون السرد الروائى أوفق فى التنقل بهما فى شوارع المدينة فى

الليل ، يحددان مواضع لصق الاعلانات عن المشروع • ثم يتوجهان ، فى باكر الصباح ، الى بيت أدهم ، ليستيقظا على اذان العصر ، ويعدا نسخا من صيغة الاعلان ، الصقها شعبان ـ بعد أن أوغل الليل ـ على أكشـاك السـجائر ودكاكينها ، باعتبار ان المدخنين أكثر الناس قلقا •

وعادا من جديد الى شـقة أدهم ، حيث يدور المنظر الثانى ، وهما ينتظران تشريف الزبائن •

ولسوء الحظ يكون أول طارق صاحب البيت • جاء يطالب بايجار أربعة أشهر متأخرة ، فيفاجأ بأن الشـقة تحولت الى « بنك » ، وأنه ، اذ يوضع موضـع المريض والمعالج فى آن بحسبة تخلصهما من الدين ، قد سقط فى شرك نصب •

بعد ذلك يدخل صحفى يدعى متولى سـعد ، يتخذه الحكيم وسيلة للتعريض بفئة الصحفيين المرتزقة • جاء هذا الصحفى الى أدهم ، زميله السـابق ، لكى يعيد له كتابة تحقيق صحفى عن « الاتحاد الاشتراكى فى كفر عنبة » ، قرية أدهم التى لم تطأها قدماه منذ فارقها فى طفولته •

ولا يعدو الفصل الثالث أن يصور لنا الانتظار الذى ينتهى فى المنظر الثالث بوجيه ثرى يدعى منير عاطف • رجل من هذه الفئة الاقطاعية التى ضربت مصالحها فى الصميم بقانون الاصـلاح الزراعى • حددت ملكيته للأرض من خمسـمائة فدان الى مائة فدان • يركب الموجة المثـالية :

ويتظاهر بأنه مع الثورة • اما فى داخله فينقم عليها ويعمل ضدها فى الخفاء •

وقد وجد هذا الثرى « بنك القلق » فرصـــة مؤاتية لتحقيق أغراضه بجمع الساخطين عن طريقه ، فاشترك فيه ، وقام بتمويله بالنفقات على نطاق واسع ، دون أن يدرك أدهم أو شعبان انهما وقعا فى حبائل من يقوم بنشاط مريب • اعطاهما نقودا ، وخصص لهما مرتبا ثابتا « خمســـة وعشرين جنيها فى الشهر » ، وأجر باسمهما شقة فى شارع شبرا خالصة الايجار لمدة سنة ، يدور المنظر الرابع وما يتلوه من مناظر فى غرفة أدهم بها •

ونتعرف فى هذا المنظر على بنت شقيق منير ، فتاة جميلة تدعى مرفت ، حقيقة الأمر انها مطلق ، وعلى خالتها العانس ، وحقيقة الأمر انها غير عانس ، فاطمة هانم التى يتخذ منها شعبان وسيلة الى مرفت التى خلبت لبه من النظرة الأولى •

ويتمثل تعلقه بها فى حديثه الدائم عنها مع صديقه ، فى الفصل الخامس • وفى المنظر التالى يتوجهان من جديد الى المكتب ، فتطرق مرفت الباب بعد قليل ، لكى تستفسر عن « بنك القلق » هذا الذى علقت يافتته على الباب •

فرصة ذهبية تتاح لشعبان عليه أن يستغلها الى آخر المدى • اعتبرها مريضة وسألها عما يقلقها فى هذا العالم ،

فوجد أن قلقها ناشيء من عدم وجود عطر « اسكاندال دى سوار » فى السـوق ، رغم ظهوره فى باريس من مدة ، وحصول احدى صديقاتها عليه ·

هذا هو القلق الذى تعانيه هذه الطبقة الغـارقة فى النعمة والترف ، فى فترة تحـول المجتمع الاقطـاعى الى الاشتراكية ·

الا أن الزبائن الذين أتوا بعد ذلك يشكون القلق ، يمثلون نماذج عدة من المجتمع ، قدمهم الحكيم لينتقد بهم مظاهر حياتنا المعاصرة ·

الزبون الأول أب ، رسب ابنه فى الثانوية لأنه « وقع فى حب فتاة ·· بنت الجيران » ، وحار الأب فيه : « ما يقلقنى هو انه يعيدها ويعيد معها نفس المأساة » ·

ويختلف الزبون الثانى اختلافا تاما · فليس ما يقلقه أمرا خاصا بل هو عام : « هذه الرجعية التى حولى ، هذا المجتمع الرجعى الذى أتنفس فيه ·· » مطمحه أن يقضى على التخلف ويفسـح الطريق « أمام كل فكر تحـررى تقدمى ·· » ·

ويقف الزبون الثالث على النقيض منه فى تبرمه · ما يقلقه « هذا الالحاد المتفشى فى البلد » · ويرى أن « نار الله الموقدة يجب أن تصب صبا على مجتمع بهذا الفجور » ·

هذان الزبونان الساخطان سخطا سياسيا يتحولان

الى الوجيه الثرى فى الغرفة المجاورة التى يصغى منها لما يدور ٠

ولا شك أن بقاء الوجيه بعيدا عن المسـرح ابهت شخصيته جدا ولم نحمل على كرهه ٠

أما الزبون الرابع فمصدر قلقه تحمسه البالغ للكرة ٠ هذه اللعبة التى بلغ الاهتمام بها بين الكبار والصغار حدا مخيفا لا يؤيده الحكيم ٠ والمضحك أن هوس الزبون بنادى الزمالك يعـدى أدهم بدوره ، فيدافع عن هذا النـادى بحرارة ٠

والحق أن تغييرا متغلغلا قد دب فى نفس أدهم الذى بدأ يائسا ، جعله فى النهاية يعتقد أنه مسـئول عن الأمة كلها ٠

ويرجع قلق الزبون الخامس الى ما يمتلىء به العصر من صواريخ واضطهادات وثورات ٠

والزبون السادس عامل فى مصنع نسيج بشبرا ٠ مثال للأمانة ٠ له زميل « طبعه الاهمال والكلفتة » ٠ وقف محيرا قلقا بين السكوت عنه ، فيصاب الانتاج بالضرر ، وتبليغ المسئولين فيتهم بالوشاية بزميل ٠

ويسفه الزبون السابع الاقتصار على الافضاء بالقلق فى مكان ضـيق ، مثل هذه الغـرفة ٠ ويريد لو ارتفعت المعارضة والتعبير الحر المطلق الى أوسع نطاق ٠ صـيد جديد يطلب الوجيه تحويله اليه ٠

ومع الزبونة الثامنة نطرق مشكلة الغلاء والتطلعات الطبقية · أم عروسة تملك لشقة بنتها وجهازها ألفا وخمسمائة جنيه · ومع هذا يكاد رأسها ينفجر من القلق لأنه سيكون أقل من جهاز بنات خالتها وعمتها ·

والغريب ان بنتها وخطيبها الحاصل على الدكتوراه فى الاقتصاد ، وله مؤلفات فى الاشتراكية ، لا يختلفان عنها فى سيطرة التقاليد القديمة عليهما ، وتمسكهما بالمظهر ·

ويشكو الزبون التاسع من أولاده الثلاثة : الأصغر فاسد الخلق ، بلا اهتمامات جادة · والآخران احدهما يسارى والثانى يمينى ، يتراشقان كل يوم أمام الأب بعبارات واتهامات خطيرة · كما انه يعانى من انسحاق فى المدينة الحديثة المليئة باشارات المرور والقيود والسرعة ·

فهل يتضمن نعى الحكيم على المدنية الحديثة ، بهذا الشكل الحاد ، دعوة الى رفضها والعودة الى القرى الهادئة ، مثلما نجد لدى الرومانسيين الذين صدمت أحاسيسهم وأحلامهم بعصر العلوم والمخترعات ؟!

هذه المدنية هى التى توفر مزيدا من الراحة للانسان ·
المهم أن الوجيه يطلب الأب ليحضر هذين الاخوين ·

وخلال محاولات شعبان أن يوثق صلته بفاطمة هانم ، لكى يبلغ مرفت ، تدعوه فاطمة الى بيت خال فى المعادى · وهناك يفاجأ بأن أم مرفت التى قيل انها متوفاة لاتزال على

قيد الحياة ، وانها مصابة بالجنون · اصـيبت به عندما اكتشفت العلاقة الجنسـية بين زوجهـا وأختها فاطمة ، فأحرقت زوجها بالنار . والتصقت به . فدفعها عنه لتعيش فاقدة العقل ·

صورة بشعة لمآسى هذا العصـر ، عند هذه الطبقة المنحلة . تعمق الاحساس بالقلق ·

فى هذا البيت ، وفى غرفة المكتب المجاورة ، اكتشـف شعبان سر هذا الوجيه المخادع · عثر فى أحد ادراج المكتب على ما يشير الى أنه يمتلك أشرطة تسجل التذمر ، الذى واجهناه فى المناظر السابقة ، يتعامل بها مع « جهات أخرى » من أعداء بلاده وأعداء الثورة ·

وقد تم هذا الاكتشاف فى نفس الوقت الذى كان الوجيه يزمعفيه مد نشاط بنك القلق الى الاقاليم عن طريق جهاز صغير يسجل قلق الناس فى القرى وضيقهم بالحياة ·

اذ ذاك يتفق الصديقان على ابلاغ البوليس : « فقط سنقول لهم أن يضعوا منير عاطف تحت المراقبة ونطلب من جهات الأمن اخلاء طرفنا من أى مسئولية جنائية » ·

وبهذه الطريقة ينجوان من الورطة التى سقطا فيها ، واتاحت لنا ـ خلال عشرة فصول وعشـرة مناظر ـ أن نطلع على كثير من افكار الحكيم فىالحياة الجـديدة ، بما تنطوى عليه من نقد اجتماعى واخلاقى ·

الأيــدى الناعمــة (١)

تقدم شعبة يوسف وهبى بالمسرح القومى فى القاهرة ، على مســــــرح الجمهورية ، « الأيدى الناعمة » لتوفيق الحكيم .

و « الأيدى الناعمة » كوميديا اجتماعية كتبها الحكيم بعد ثورة يوليو ١٩٥٢ بسنتين ، تتخذ مادتها من التغير الذى جرى على وجه الحياة فى مصر ، ممثلا فى تذويب الفوارق بين الطبقات ، وطرح قيم اجتماعية جديدة محل القيم القديمة البالية التى أجهزت عليها الثورة .

الا أن توفيق الحكيم لم يثقل نصه الواقعى بالفكر ، بل وازن بينه وبين فنون العرض والحركة ، داخل اطار الشكل التقليدى ، الذى يتسم بالبساطة والوضوح .

---

(١) جريدة « الأنوار » ، بيروت ، ٢٩ يوليو ١٩٧٢ .

وها نحن فى المسرحية نقابل أحد أفراد الطبقة القادرة ، البرنس فريد ، صاحب الأطيان ، بعد أن أفقدته الثورة لقبه وماله، وبعد أن أقســـم الا تدخل بنتاه بيته : مرفت لأنها لا تساير القيم القديمة : « لم يعجبها خطيبها النبيل مدحت » .. وتزوجت من عامل ميكانيكى عاشت معه حياة الضنى سنوات ، وصـــعدا السلم من أوله ، حتى كونا ثروة . والثانية : جيهان لأنها لحقت بأختها مرفت .

نمط شـــــامل

نتعرف منذ الفصل الأول على فريد ، الذى يعد نمطا شاملا ، من خلال تمسكه بكل ما مضى ، ورفضه ومحاربته لكل التغييرات الجارية فى الحياة من حوله . رجل لم يسبق له أن عمل شيئا لكسب الرزق ، ولا يحسن أى عمل . ذلك أنه يعتبر العمل للخدم والعبيد ، بينما تعتبره بنته ، ويعتبره العصر كله ، الحرية ـ أرفع القيم الانسانية .

وتحاول مرفت عبثا أن تعاون أباها لكى يعيش كما يعيش الانسان الكريم ، لكنه يصم أذنيه عنها ، وبذلك يحتدم الصراع بين القوتين .

ثم يلتقى فريد بدكتور فى النحو يدعى على حموده يبحث عن عمل ، فيدعوه للاقامة معه فى قصره الواسع حتى يمارس السيادة عليه . وهما يشـــكلان ، عبر فصـــول

المسرحية ، ثنائيا ضاحكا ، يكشـــف على الدوام عيوب البرنس ·

ولاتساع قصر البرنس يعلن عن تاجيره ، حتى يجد أيضا من يخدمه بينما يظل بدون عمل ، على شاكلة ما أعتاد ·· وبالفعل قبل العمل عنده الحاج عبد السلام وابنته كريمة التى يقع البرنس فريد فى حبها ، وهى فتاة عاقلة ، لا يجد أدنى حرج فى مساعدتها فى أعمال المطبخ ، مما يعنى حدوث بعض التحول فى سلوكه ·

وحين يفاتح البرنس الأب فى الزواج يفاجأ بأن المسئول عنها هو أخوها الأكبر ، زوج ابنته مرفت ، الذى دبر مع زوجته هذا الموقف ، حتى يرعى حماه ·

كذلك تعتبر جيهان ، التى تعلق بها دكتور النحو ، زوج أختها نفسه ، المتصرف فى شؤونها ·

النهاية الســـعيدة

تحت تأثير الحب ، يقبل فريد فى النهاية ، هو والدكتور، العمل الذى يقترحه عليهما زوج مرفت فى شركة البترول التى يملكها ، والذى يتلاءم مع هواية واستعداد كل منهما،

حتى يكونا أهلا للزواج ، والانخراط فى الحياة الجديدة ، التى لا تعترف بالخاملين ٠

وهكذا ينتهى الصراع نهاية سعيدة لصـــالح جميع الأطراف ٠

المسرحية تنتمى الى المسرح التعليمى الذى تتجه فيه الأفكار ، النابعة من المواقف ، الى الجمهور مباشرة ٠

« الدنيا روايــة هزلية » (١)

بدأ مسرح الاسكندرية القومى نشـــاطه لهذا العام ، بتقديم مسرحية « الدنيا رواية هزلية » ، تأليف توفيق الحكيم .. اخراج وديكور حسين جمعة . ملابس سيف وانلى .

وكما يوحى عنوان المسرحية فهى كوميديا اجتماعية ، تبدأ بصرخة احتجاج يطلقها شـــخص يدعى « خالد » فى المكتب (الذى يضم زميله راشد وزميلته علوية) ، لأنه لا يعمل شيئا فى الدنيا . انه « عاطل بالوظيفة » ليست له حياة : « ابقى ميت .. أبقى جثة .. أبقى جيفة » .

وهكذا لا يجد حامد أمامه الا كتاب « حلول الروح ، أو تناسخ الأرواح عند الهنود والمصريين القدماء » ، فيقرأه .

---

(١) جريدة « الأنوار » ، بيروت ، ٤ فبراير ١٩٧٢ .

هذه هى الخطوط العريضـــة التى يقيم عليها توفيق الحكيم بناءه المسرحى · وعبر الاحلام تحل روح البطل الساخط ضمن مجموعة من الأشخاص ، مختلفى المراكز ، متعارضـى الطباع ، فى حياة نابضـــة يتخطى بها واقعه الصغير ، وتتكشف لنا خلال صراعه مع القوى المناهضة ·

القـــدرات الكبيرة

وعلى الرغم من أن الحكيم يطرح أفكاره بهذا الشكل ، فان المسرحية تومىء الى القدرات الكبيرة التى تمتلكها كل شخصية ، يمكن أن ترتفع بها على الواقع ·

لذلك فأولى هذه الشخصيات ، التى يحياها البطل ، هى شخصية رئيس دولة كبيرة يتخذ قراره بمنع الحرب ، وبتدمير الأسلحة التى تحفظ التوازن فى عالم فاقد التوازن ، بينما امرأته ـ علوية ـ تتمتع بالحياة والرقص بعيدا عن هموم زوجها ومشاكله ·

يلى ذلك حلوله فى شـــخصية ممثل آخـر يؤدى دور « روميو » فى مسرحية شكسبير · نراه يهاب صعود السلم المصنوع من الحبال ، المدلى من شرفة جولييت (علوية) ، أكثر مما يهاب أهلها ·

فى هذا المشهد يختلط الجد بالهزل ، لأنه يقدم من خلال هذه الصورة واقع العصر وظروفه الخاصة ·

بعد ذلك تحل روحه فى شخصية عالم لا يؤمن بالعاطفة ·· يباشر بحوثه الى جانب زوجته ومساعدته علوية ·

تدور هذه البحوث حول اكتشـــاف خلايا فى موميات تحيا ثانية ، تؤدى الى الغاء الموت ، ومن ثم عدم الانجاب ·

العقـــل والقلب

يتمثل التناقض فى شخصية هذا العالم ، بالرغم من تسفيهه للعواطف ، فى انه يعمد الى قتل زوجته بالسم ، بعدما يضبطها مع عشيقها الصحفى · وهذا يعنى فى مســـرح الحكيم ، ان الانسان ، مهما ارتقى بأفكاره ، سيظل سجين عواطفه ، يتجاذبه العقل والقلب ·

وعلى شاكلة الكوميديات الاجتماعية تنتهى المسرحية ، نهاية سعيدة ، باعتزام خالد الزواج من علوية ، بعد أن يصــحو ويعود الى عمله ويســـألها هل أنت جوليت أم كليوباتره ؟ فتجيبه : « أنا حياة جديدة ·· بنت عصرها » ·

قضــــايا

مقــال مجهــول (١)

هذا مقال مجهــــول تماما لتوفيق الحكيم . عنــوانه « الكتابة العربية واصلاحها » . نشره فى مجلة « الموظف » المصرية ، العدد الخامس مايو (ايار) ١٩٣٦ .

و « الموظف » مجلة ادارية علمية أدبية ، لم اتمكن من معرفة تاريخ توقفها . كانت تصدرها رابطة موظفى الحكومة المصرية فى القاهرة ، ولا تقرأ خــارج نطـــاق الدواوين الحكومية فى العاصمة والاقاليم .

وعلى الرغم من أهمية هذا المقال الخــــاص بالتغلب على عدد من العيوب الواضـــــحة التى تعانى منها اللغة العربية ، وتقف عقبة فى سبيل تقدم الحياة الفكرية ، الا أن هذه الدعوة ظلت مطوية ، بعد ذلك ، ما يزيد عن عشرين

---

(١) جريدة « الأنوار » ، بيروت ، ٢١ يناير ١٩٨٤ .

سنة ، من ١٩٣٦ الى ١٩٥٧ ، حين عاد اليها طه حسين ، ودعا فى جريدة « الجمهورية » فى مقال عنوانه « ليست ثورة وانما هى دعاء » ، الى مطابقة الكتابة للنطق ، فلا نكتب الا ما ننطق به • وبهذه الطريقة لا يحتاج القارىء ، بادىء ذى بدء ، الى فهم العبارة فهما جيدا ، حتى تصح وتستقيم قراءته لها •

ذلك انه دون هذا الفهم الجيد ، يتعرض القارىء مهما انفق من عمره فى اتقان العلم باللغة ، للخطأ الفاحش •

وهذا نص مقال توفيق الحكيم :

« الكتابة العربية ستقتل اللغة العربية هذه صـــيحتى اليوم • صيحة هذا الجيل • صيحة كل جيل لأن الداء خطير يحسه الناس فى كل زمان • لقد ذهب الجيل الماضى وفى صدره صيحة كبيرة لفظها الاســـتاذ الجليل احمد لطفى الســـيد « باشـــا » يوم ١٣ يناير ســـنة ١٨٩٩ فى مجلة « الموسوعات » اسمعوا اليه اذ يقول منذ نيف وثلاثين عاما : «لغتنا العربية لغة الحكمة والخطابة، ولغة الوصف والشعر، لغة الآداب ، لغة العلم ، أصبح تعلمها علينا أبعد منالا من تعلم اللغات الأجنبية • ليس من غرضنا البحث فى أسباب ذلك ، فهى شهيرة معلومة • بل الغرض البحث عن طريقة تسهل انتشار اللغة الفصحى بين القوم وابدال هذا النطق

غير العربي الدائر اليوم على السنة الناس ، الخواص منهم قبل العوام ، بنطق عربي فصيح ، هذا غرض يكفينا فى الحصول عليه أبسط الأشياء : محو الشكل وابداله بالحروف اللينة لتدل على الحركات ، فان قصدت الدلالة على المد رسمت علامة المد (ــ) على الحرف اللين الممدود • بيان ذلك :

١ ــ حروف الهجاء كلها ســـاكنة الا الألف والواو والياء •

٢ ــ لا يتحرك الحرف الســـاكن الا اذا اتبع بحرف متحرك • فالفتحة تكون بالألف ، والكسر بالياء ، والضمة بالواو •

٣ ــ الحرف المتحرك الممدود تكون الدلالة على مده علامة المد هذه (ــ) •

٤ ــ التنوين يظهر فى الاسم كما يظهر فى النطق ، وعلامته نون (ن) تكتب بعد الحرف المنون مسبوقة بالحرف اللين نحـــو زايدون (زيد) وزايدان (زيدا) وزايدين (زيد) •

٥ ــ يجب فك الادغام دائما فى الرسم فيكتب الحرف المشدد دائما بحرفين مثاله ماددا (مد) •

٦ ــ ان أداة التعريف ان وقعت شمسية تكتب كما هى •

وان كان يجوز كتابتها على حســـب النطق ، الا أنه من المستحسن أن يشذ بها عن القاعدة لحفظ شخصيتها •

٧ ـ يلاحظ أن الهمزة هي من الحروف الساكنة فترسم دائما بمفردها ويتبعها حرف المد على حسب الأحوال ٠

هذه طريقة نحن ابتدعناها ، ولكنها الطريقة الطبيعية لرسم الكلمات كما يتلفظ بها ، وانها لتدور فى خلد كثير من محبى اللغة العربية ومحبى نشرها ٠

وليس الشكل من أصول اللغة بل هو أمر عرض لها بعد الاسلام خشـــية عليها من التحريف وفى أواخر الكلمات ومبانيها ٠ وفى هذه الأيام أهمل الشكل بالمرة فلا يستعمل فى الكتب حتى تقرأ كما أراد المؤلف أن تقرأ ، ولا هى تكتب فى الجرائد حتى يألف العامة النطق الصحيح ان لم نقل الخاصة ٠ وهذا اقتراح نقدمه لمن يهمهم أمر اللغة حتى يزيدوا علينا ما عسانا نكون قد اهملناه ٠ كما اننا لسنا فى حاجة الى التدليل على فائدة ابطال الشكل وتغييره بالحروف اللينة التى هى بذلك لا تدل على أكثر من الحركة للحرف الساكن اذ الفائدة فيه لا تحتاج الى دليل » (أحمد لطفى السيد) ٠

الجيل الماضى

بهذا صاح الجيل الماضى وذهبت الصيحة هباء وبقيت اللغة العربية على حالها لغة مخيفة دائما بعيدة المنال علينا وعلى الافرنج دائما نقرأ فيها فيستوى العالم منا والجاهل فى التعثر واللحن ، وان سلمنا من اخطاء النحو فما نسلم

من اخطاء الصرف • يستحيل على القارىء ان ينصرف بذهنه الى المعنى فهو مشغول بالفاعل والمفعول والمبتدأ والخبر ، ومصادر الكلمة ومشتقاتها •

يجب أن نفهم الجملة واعرابها أولا قبل أن نشرع فى قراءتها •

ولقد قالها المرحوم قاسم أمين فى كلمته المأثورة عن الكتابة العربية « ينبغى ان نفهم أولا ثم نقرأ ، لا ان نقرأ فنفهم» • المنطق المعكوس هو أساس الكتابة العربية • لاريب ان الكتابة العربية هى الوحيدة الفريدة بين كتابات الأمم فى بعدها عن المنطق والمعقول • ومع ذلك نسكت • ومع ذلك لا نصنع شيئا لانقاذها وانقاذ اللغة العربية • ان الكتابة العربية على هذه الصورة لا تصلح لترقية اللغة العربية لأنها ليست كتابة ، وانما هى اختزال « تشينوجراف » هى كتابة ناقصة تصلح للتدوين السريع ولا تصلح أداة لحفظ كنوز الفكر والبيان • ولن تصبح الكتابة العربية كاملة صالحة حتى تمكن القارىء من النطق الصحيح بغير حاجة الى معرفة النحو والصرف •

ان هذا الجيل يفهم بلا ريب ان اصلاح الكتابة أمر لا جرم فيه ولا جناح لأن الكتابة لباس قابل للتغيير •

ولقد تغيرت الكتابة الفرنسية مثلا عما كانت عليه منذ قرون أربعة منذ عهد رابليه ومونتانى • فلقد كانت الكتابة

الفرنسية قديما كالكتابة العربية اليوم لا تصور النطق الصحيح للألفاظ فكلمة devoir مثلا كانت تكتب debvoir وكلمة beauté كانت تكتب beaulté وكلمة même كانت تكتب mesme

الكتابة العربية فى حاجة الى مثل هذا الاصلاح • واصلاحها هين مقبول فاننا لن نحذف منها شيئا كان موجودا لكننا سنرد اليها شيئا أخذ منها بغير حق هذه الحروف اللينة التى تسرع سيبويه فى حذفها •

« الكلام فى هذا للأمة » كذلك قال لى الاستاذ أحمد لطفى السيد اذ كنا نتحادث فى هذه المشكلة « ان اللغة ملك الأمة وأمر اللغة مرهون بمشيئة المجموع » •

وهانذا أبسط الاقتراح ، وأصيح الصيحة التى ترتفع فى كل جيل ، فهل آن الأوان للاصغاء اليها هذه المرة ، أم كتب على هذا الجيل أيضا ان ينتظر ؟

توفيق الحكيم

آراء الحكيم
في الأدب والفن (١)

عرف توفيق الحكيم فى حياتنا الثقافية ككاتب رائد فى المسرح ، والرواية ، والقصة القصيرة · وعلى كثرة المقالات والدراسات والكتب التى تناولت أدبه ، لم يلتفت أحد من النقاد الى كتاباته النقدية ، وأحاديثه ، ورسائله ، ومقدمات كتبه ، ومذكراته ، وتعليقاته ·· الخ · التى تتضمن أفكاره وتأملاته وخواطره فى الأدب والفن والحياة ، التى صدر عنها ابداعه الفنى ·· هذا الابداع الذى ساير حركة المجتمع والعصر ، دون أن يبتعد عن جوهرهما الثابت ، أو المبدأ العام الذى ينتظمها ·

ولهذه الأفكار والتأملات والخواطر التى تتناثر فى هذه الكتابات على اختلافها ، وقد تكون الأحاديث فيها أنبض

---

(١) مجلة « القاهرة » ، القاهرة ، سبتمبر ١٩٨٧ ·

بالجرأة ، أهميتها البالغة فى فهم انتاجه الفنى ، لا غنى عنه لمن يريد ان يضع يده على الخيوط الأساسية الدقيقة التى يتشكل منها هذا الانتاج الغزير ، الذى خضـــع لتطورات شتى ٠

ولاشــــك ان هذه القراءة النقدية لآثار الحكيم كلها ستصحح أو تفسر الكثير مما يقال عن الحكيم ، من أنه « اديب البرج العاجى » ، أو « راهب الفكر » ، أو « عدو المرأة » ٠٠

ان أى مراجعة لهذه الصفحات التى تدل على اطلاع واسع فى التراث الانسانى قديمه وحديثه ، وعلى المام كبير بفروع التعبير المختلفة من آداب وفنون وعلوم وفلسفات : وصفه الحكيم فى « زهرة العمر » بأنه شـــراهة فى المعرفة (كتابة الهلال ، فبراير ١٩٥٥ ، ص ١٩) ، قد تعكس الصورة الشائعة عنه من النقيض الى النقيض ، وتقدم الأدلة القاطعة بأنه ، بفضل رسوخ قدمه فى الثقافة والعصر ، أديب الحياة ، المهموم بمشاكلها الاجتماعية والانسانية ــ سواء اتفقنا أو اختلفنا معه ــ المدرك لتقنيات فنه ، المحب للمرأة ، والمؤمن بأنها قد تكون ــ فى مراحــــل معينة من تطـــورنا الاجتماعى والسياسى ــ أكثر قدرة من الرجل على الكفاح والصمود ٠

فاذا أردنا أن نمتحن ، على سبيل المثال ، بعض هذه المواقف من خلال أحاديثه ، سنجد الحكيم يقول فى حديثه الطويل الذى أجراه معه فؤاد دواره فى كتابه « عشرة أدباء

يتحدثون » (دار الفكر ، ط ٢ ، ص ٥٥) ، ردا على فكرة البرج العاجى : « مامن فنان أيا كان يمكن أن يتنصل من مسئوليته نحو عصره ومجتمعه • وأنا شخصيا لا أستطيع أن أتصور فنانا بهذا الشكل فى عصرنا الحاضر » •

وعن مقولة « راهب الفكر » وما تعنيه من عزلة وشرود وهيام فى مروج الخيال أو وديانه السحيقة ، يقول الحكيم فى كتابة « فن الأدب » (المطبعة النموذجية ، ١٩٥٢ ، ص ٢٥٣) :

« الفكر صحو لا نوم ، وان المفكر هو أشد الناس يقظة، لأنه يجب أن يرى للناس ما لم يروا •• وأن يبصرهم بما لم يبصروا •• وأن ينبههم ويهديهم وهو مكتمل العقل ، متفتق الذهن ، متسع الأفق والحيلة والمعرفة والتجاريب » •

ولن نعدم ان نجد فى هذه الكتابات والأحاديث مايشيد فيها بالمرأة ، وينم عن دورها الكبير فى الحياة •

وهكذا بالنسبة لسائر المواقف • علينا ألا نتجاهل ما جاء فى كتاباته النظرية وأقواله ، ولا نقبل ما أشاعه عن نفسه من أساليب الدعاية ، أو أشاعته الصحافة عنه •

وتوفيق الحكيم ، بهذه الكتابات المختلفة والأحاديث ، لا يختلف عن أدباء العالم الكبار ، الذين لهم آراء نقدية مدونة ، بالغة النضج ، ترد فى كتبهم وأحاديثهم ورسائلهم (كما يمكن ان ترد فى صميم أعمالهم الفنية) سواء قصدوا

الى ذلك قصدا ، أو كانت مجرد مناسبة عرضت ، ولكنها تعد ، فى الحالتين ، بمثابة مصادر تكميلية ، ان لم تكن رئيسية ، تساعد النقاد على فهم أدبهم ، وتحديد مواقفهم ·

ذلك أن كل فنان كبير يطوى فى صدره ناقدا على نفس المستوى ، يثرى موهبته الفكرية ، دون أن يخرج به عن دائرة الفن ·

وفى هذا المقال لن نتجول فى كتب وأحـــاديث توفيق الحكيم ، وما أكثرها ، بل سنقف عند كتاب يعلن عنوانه انه كتاب نقدى ، ولو على المستوى النظرى ، وهو « فن الأدب » الذى صدر والحكيم تجاوز الخمسين من عمره ، وهى السن التى تمثل قمة نضوج الكاتب ، واستقرار رؤياه الفنية ، وقيمه الأدبية ·

ومن البداية لابدمن الاشارة الى أن نقد الحكيم لايتعدى النقد الانطبــاعى الشـــخصى · ولا أظن أنه ادعى أكثر من ذلك · ومعظم هذا النقد يحلق فى فلك القضايا العامة · ويرجع اهتمامنا به ـ كما سبق ـ الى ما يلقيه من أضواء على أعماله نفسها ، التى يصعب وضعها فى مدرسة محددة ، أو فى اتجاه معين ·

ولعل أول ما يمكن ملاحظته ، فى هذا الصدد ، ايمان الحكيم الوطيد بأن الخلق ينشــأ من المادة ، ويعنى به الموضوع ، وان الفن تعبير عن الحياة · وعلى هذا الأساس

قد تتفق المادة ــ الموضوع ــ بين عدد من المبدعين ، ولكن يظل لكل عمل خاصية الخلق التى يتفرد بها ، لأن المعول ، عنده ، فى عنصر الخلق الجديد ، ومناطه قوة البناء ، ودقة التركيب ، واحكام التناسق ، والتركيز الشديد الذى يحدث التأثير • أما الموضوع ، أو الحكاية ، فليست بذى خطر •

يؤكد هاذ المفهوم أن بين المبدعين من يختار موضوعا باليا من كثرة التناول • ومع ذلك يتألق العمل الفنى بالخلق والابتكار الجديدين •

أما الأعمال المخترعة ، التى لا سند لها من المادة أو الواقع ، مثل شخصيات روكامبول وأرسين لوبين وطرزان ، فينعتها الحكيم بعدم الصدق ، والافتعال ، ولا يحفل بها ، ولا يدرجها فى نطاق الأدب • وهذا دليل على عمق جذوره فى الأرض ، وتمسكه ، فى كل أعماله ، بالغاية الاجتماعية أو القومية أو الشعبية ، اذ لا فن ، فى تقديره ، منفصل عن الحياة • وبقدر هذا الاتصال أو الارتباط بالأرض والحياة يكون عمق أثره فى أهـــل الزمن والوطن ، وفى كل زمن ووطن •

ولكن علينا أن نفهم هذا الارتباط فى طاقة الروح المبدعة، الواثقة بنفسها ، التى تترقرق فى العمل الفنى ، وليس فى مجرد الشكل الخارجى •

وفى كتاب الحكيم الذى بين أيدينا ، « فن الأدب » ،

يتهكم على الذين يكتبون على قصصهم « قصة مصرية » ، ويصبغونها بالألوان المحلية الصارخة ، تحت تأثير مركب النقص ، أو الخوف الذى لا مبرر له ، قائلا ان المصرية الحقة ـ التى دفع اليها هاتيك الأيام يقظة الشعور القومى ـ تطبع بخاتمها الموضوعات التى تتناولها ، أيا كانت ، ولو كانت موضوعات أجنبية • ويضـــــرب الحكيم مثلا بشكسبير الذى نقل فى مســـــرحه عددا من الموضـــوعات والأساطير الايطالية والدانمركية والشرقية ، ولم يؤثر ذلك على طابعه الانجليزى •

غير أنه ، من جهة ثانية ، يرى ان البيئة التى ينشأ فيها الكاتب أو الفنان ، فى بلادنا ، لا تِتنِســاعد على التفرد والابتكار ، نتيجة ما يسودِها من صراع القوى والضعف ، وجذب الأجسام الكبيرة للصغيرة • فالآباء يفقأون عيون الأبناء ، لكى يروا بغير عيونهم ، ويسموا الأشياء بالأسماء التى وضعت لها من قبل •

ولقب الفنان أو الشـــــاعر المبتكر ، عند الحكيم ، لا يستحقه الا من سلم من هذا المصير ، وتكشفت له نفســـه الخاصة ، وحققها بالجدة السحرية •

لهذا دعا الحكيم الى تحطيم الذرة فى الأدب ، على غرار تحطيمها فى العلم ، وتحـــرير النواة « الفرد » من أســـارها ، وانطـــلاقه بعيدا خارج الجاذبية ، حتى تبرز

شخصيات الأدباء والفنانين كعباقرة ، لهم منطقهم الخاص الذى لا يتقيد بأى نظر سائد ، ولا يخضع لأى تأثير ٠

عندئذ يصبح حتى للماحكاة أصالتها غير الملموسة، ويصبح للأصالة أيضا ، حتى وهى تقلد ، طابعها المتميز بذاته ، ومنطقها الخاص ٠

ان الكاتب العظيم ، عند الحكيم ، مثل الفاتح العظيم ، اذا وقع على أرض ليست له ، أخضعها لسلطانه ، ووضع عليها راية عبقريته ٠

بنفس هذه الرؤية الأصيلة المجددة ، يأخذ الحكيم على الأدب العربى القديم اقتصاره فى النثر على الرسائل والمقامات ، وخلوه من الأشكال الفنية الأخرى ، رغم استيعاب الحضارة الاسلامية الزاهرة للحضارات السابقة عليها فى الفنون المختلفة ، وفى مقدمتها العمارة ٠ ويأخذ على لغة هذا النثر اغراقه بالوشى اللفظى ، بما لا يدع مجالا للتعمق والتحليل ، بسبب هذه العناية الزائدة باللغة ٠ كما يرى فى الرسائل والمقامات جمودا وتكلفا ٠

ولأن هذا الأدب الرسمى لم ينزل الى الحياة الشعبية ، ليصور ما يجيش فيها من أحاسيس ، وما يهيج فيها من خيال ، ظهر ، عوضا عنه ، الأدب الشعبى ، الذى يبدعه أدباء من الشعب ، يتمتعون بالسليقة الفنية ، وروح الخلق ٠

يقول الحكيم فى كتابه « زهرة العمر » ص ١٤٠ ، مؤكدا هذا المعنى :

« فما ظهور الأدب الشعبى احيانا الا علامة قصور أو تقصير من الأدب الرسمى . أو صرخة احتجاج على جمود الفصحاء .. هكذا ظهر القصص الشعبى فى صورة عنترة ومجنون ليلى وكثير عزة .. الخ .. وسارت الحضارة الاسلامية فسار معها الأدب الخيالى الاجتماعى الشعبى فاذا نحن أمام عمل فنى رائع هو « ألف ليلة وليلة » .

ومع هذا فلا يستثنى الحكيم ، من هذا الحكم ، الا أديب العربية الأكبر الجاحظ ، لأنه «نزل» ــ ولهذه الكلمة دلالتها على استعلاء الأدب العربى على الواقع ــ الى الشعب وكنوزه « يصور أسواقه وبخلاءه ولصوصه وتجاره وشعراءه وخبثاءه ، فى أسلوب بسيط » ص ٢٤ . ونجد هذه العبارة ، بنصها الحرفى ، فى « زهرة العمر » ص ١٤١ .

يرى الحكيم ان هذا الاتجاه التصويرى فى النثر ، الذى يمثله الجاحظ ، معتمدا على الأسلوب السهل المرن ، الذى لا يكون الأدب فيه مرادفا للغة والتصنع ، ويلقى بثقله كله على الحياة الشعبية ، لا على الكتب وحدها ــ هذا الاتجاه هو الذى غدا فى مصر صفة الأدب الحديث ، منذ الحرب العالمية الأولى ، الى جانب استلهام الأدب الشعبى القديم ، وفى مقدمته « ألف ليلة وليلة » ، وتأثره الواضح بالآداب

العالمية عن طريق الاغتراف من كل ينابيع الفكر والثقافة الكاملة ، التى تربى الملكات ٠

واللغة المسرحية عند الحكيم كائن حى متجدد متطور ، تتجاوز مجرد الأداة ، لتصبح جزءا من نسيج المسرحية ، الد ؟عدائها الاطالة والحشو والتنميق ٠ انها ترتبط بموضوعها ببساطة وبلا تصنع ٠ فاذا كتبت بالفصحى مسرحية عصرية ، تنهض على شخصيات شعبية ، كان ذلك فعلا خادعا مضللا ، يقع على حساب الدقة فى التصوير ، والصدق فى التلوين ٠

وعلى الرغم من أن نشأة الحكيم المسرحية كانت فى قلب الحياة الفنية ، وسط الموسيقيين والمغنيين والعوالم والمشخصاتية ، وفى كواليس المسرح ، الا أنه تحول من مسرح الفرجة الى مسرح القراءة ، أى الى أدب المسرح الذى يقرأ لذاته وبذاته ، بحكم الطبقة الوجيهة التى ينتمى اليها ، فى بيئة تنظر الى التشخيص بمعزل عن الأدب ٠ وقد ندم الحكيم ، فى آخر حياته ، على هذا التحول ، لأن المسرح تمثيل أولا ٠

ويمكن أن نجد البذور التى هيأت للحكيم هذا التحول فى التقدير الذى حمله لشكسبير وموليير وجوته ٠ يقول عن أعمالهم فى ص ١٩٧ :

« استطاعت أن تبرز عوالم هائلة رائعة ، تقوم بنفسها بمجرد القراءة ، دون الالتجاء الى مسرح وممثلين » ٠

ومن القضايا الأثيرة التى تشـــغل الحكيم فى كتابه ، ونراها تتردد فى مسرحياته منذ « سليمان الحكيم » ١٩٤٣، قضية رسالة الأدب ازاء أزمة الانسانية ، التى تقدم وسائل القدرة والحرب والابادة على وسائل الحكمة والعقل ، داعيا الى تضامن المفكرين فى أنحاء العالم لاقرار رسالة الحكمة التى تكبح طغيان القوة ، واعلاء جانب الروح لتتوازن مع نصرة المادة والحواس ٠

ولأن قضية الالتزام كانت ، فى غضون الحرب الكبرى الثانية وأعقابها ، مثارة على الساحة على مستوى العالم ، وهى قضـــية أســـــاسية فى بلد محتل ، يعانى من التخلف والرجعية ، ويخوض المقاومة والتطلع الى حضارة العصر ، فما كان لكاتب مثل الحكيم ان يتجاهلها ٠ وخلاصة رأيه انه ضد الالتزام المفروض من خارج ذات الأديب أو الفنان ، ومع الالتزام النابع من أعماق نفسهما ، كجزء من كيانهما ، أو من طبيعتهما ، وتفكيرهما ، وعقيدتهما ٠

وغنى عن البيان أن هذا الموقف من ثمار ايمان الحكيم العميق بحرية الكاتب « فبغير حرية لا يكون أدب ولا فن » ص ٣٠٩ ٠ بل انه فى كتابه « وثائق من كواليس الأدباء » (كتاب اليوم ، فبراير ١٩٧٧ ، ص ١٢٠) يقول : « ان مستقبل مصر كله متوقف على ضمان حرية العقول والأفكار الحرية الضرورية لكل نهضة حقيقية » ٠

ومثل هذه الأقوال تفسـر لنا تمسك الحكيم ، طوال حياته ، بعدم الانخراط فى سلك حزب أو هيئة أو تنظيم ، لئلا يفقد استقلاله فى الرأى ، وحريته فى النظر الى الأمور بلا قيد ، الا ما يفرضه عليه قيد الموروث !

وجزع الانتماء عند الحكيم لا يقتصر على السياسة ، بل انه ينسحب على الفن أيضا ، منذ عفر جبينه به عند أقدام آلهته · فقد رفض الحكيم فى البداية ترشيحه لعضوية مجمع اللغة العـربية ، لأن المجمع نشأ للمحافظة على اللغـة العربية ، وهو ككاتب ، يسـتخدم العامية فى مسـرحياته وقصصه ، يخشى ان تكون هذه العضوية حدا على حريته فى الكتابة باللغة التى يريدها ، ويعتقد انها أقدر على خلق الأثر الفنى المعبر ·

وفى ضوء مفهوم الحكيم للالتزام النابع من الذات ، وجزعه من الانتماء بكل أشكاله ، نستطيع أن نفسر صراع شخصياته المسـرحية ضد القوى الخفية غير المنظورة ، المناهضة لهم ، التى تعترض حياتهم ، وتفت عضد ارادتهم الحرة ، مثل الزمن ، والمكان ، والغرائز ، والطبائع ·

« توفيق الحكيم اللامنتمى » (١)

صدر فى القاهرة منذ بضـــعة أســـابيع ، عن « دار الموقف العربى » ، كتاب على جـــانب كبير من الأهمية ، عنوانه : « توفيق الحكيم اللامنتمى » ، وهو عبارة عن دراسة فى فكر الحكيم السياسى ، من تأليف الكاتب المصرى أحمد محمد عطية ٠

ترجع أهمية الكتاب الى أنه يطرح ادعاء كبيرا ، مفاده أن مواقف توفيق الحكيم ازاء القضايا السياسية الراهنة ، التى تثار بالحاح فى الحياة المصرية، تتسم كلها بالتناقض ، ويعـــرض البينة على هذا التناقض الخاص بالقضـــايا التالية : قضية عروبة مصر ، قضية الديمقراطية ، ثورة

---

(١) جريدة « الأنوار » ، بيروت ، ٢١ ديسمبر ١٩٧٩ ٠

يوليو (تموز) ١٩٥٢ ممثلة فى جمال عبد الناصر ، اليمين واليسار ، اسرائيل ٠

والحق أن التناقض فى مواقف الحكيم لا يقتصر وحسب على القضايا العامة ، المتصلة بالسياسة فى مصر ، بل ينطبق ، أيضا ، على قضايا الفكر والفن البحتة ، وعلى ابداعه المتنوع فى الاشكال الأدبية المختلفة ، التى تحفل بالأفكار والرؤى نفسها ٠

ولو أن المؤلف توسع فى تناوله للحكيم ، ووضع انتاجه الأدبى ضمن دائرة البحث فى معتقداته السياسية ، لقدم دراسة من أوفى ما تكون ، تقدم الوجوه المتعددة للحكيم ، الذى يصفه نقاده بأنه رائد بلا نظرية ، لأن وجه الفنان المعتزل بالبيريه والعصا ، الذى يجلس فى البرج العاجى ، غارقا فى تأملاته ، مستلهما ربات الخيال ، يتراءى فى حياتنا الثقافية كما يتراءى وجه الفنان الملتزم ، الذى يستقى مادته من التجربة الحية ، متجاوزا هدف الامتاع الفنى فقط ، الى ما يؤكد بعض القيم المتقدمة فى الحياة والعصر ، التى ينفعل بها الحكيم ، ويستجيب ابداعه لها ٠

وعلى هذا النحو ، وحده ، تكتمل أمامنا صورة الحكيم المتعددة الابعاد والمستويات ٠

ومع هذا فان الحكيم سياسيا يمكن أن يلخص ،على نحو من الانحاء ، الحكيم أديبا ، تأسيسا على أن فكره

السياسى ـ كما يذكر أحمد عطية فى صفحات الكتاب الأول ـ هو « المحرك والدافع لكثير من أعماله الأدبية والفنية » ٠ وفى مقدمتها بغير شك مسرحه الذهنى ٠

الجمـــــلة الواحـــــدة

فلننظر فى الكتاب ، لنر صـــورة الحكيم السياسى ، ونضع يدنا على مواطن التناقض فيها ٠

يقول المؤلف فى صفحة ١٥ ، فى جملة واحدة مركزة ، ان الحكيم « ليس مجرد كاتب فرد ، بل أنه ضمير المجتمع وضمير السلطة ، على ما فى ذلك من تناقض هو الســـمة الأساسية لتوفيق الحكيم السياسى » ٠

ومعنى هذا أن حرص الحكيم على أن يكون معبرا عن المجتمع ، منذ بداية حياته الأدبية ، ثم يكون ، فى الوقت نفسه ، معبرا عن السلطة ، يمكن أن يكون المصدر الأساسى لكل هذا التضارب السافر فى مواقفه ، بســـبب التناقض المحتوم بين السلطة والمجتمع ، اذ يجد نفسه مدفوعا للميل مع الكفة الراجحة ، أيا كانت ، الشعب أو السلطة ، دون مراجعة وافية لما يعنيه هذا الميل من دحض أشياء قد تفضل فى قيمتها ومعناها ما عبر عنه ٠

وتحت تأثير هذا الميل يقع الحكيم فى مطبات كثيرة ، لعل أخطرها معاداته ، فى بعض مؤلفاته ، للثورة الاجتماعية ، وتجاهله ، فى بعضها الآخر ، للقوانين الموضوعية للتطور ٠

وفى الفصل الخاص بالحكيم اللامنتمى ، يومىء محمد عطية الى سر هذا الخلط أو التناقض ، وهو أن الحكيم يتجنب الانحياز الى اتجاه دون اتجاه ، ولا ينضم الى حزب أو تيار ، ربما خوفا من تحمل تبعات هذا الانحياز ، أو تنصلا من مسئولياته الجسام ، وربما حرصـــا على أن يستبقى كل جسوره قائمة مع كل القوى والعناصر التى تشكل المرحلة ، ايثارا للسلامة التامة ٠

وحســـبه أن يتجـاوب مع الرأى الغالب ، أو القوة السائدة ، ويكون صدى لها ــ مجرد صدى ، حتى اذا ما انحسر مدها ، قام بترجيع صدى المد الجديد ٠

لهذا لم يكن غريبا أن يدعو الحكيم ، فى قمة الغليان السياسى فى مصر ، قبل ثورة ١٩٥٢ ، الى الابتعاد عن « وحل » السياسة ، والتفرغ للفكر المجرد ، تملقا للانظمة المستبدة حينذاك (الملكية والاقطاع والاستعمار) ، التى يهددها الخوض فى السياسة ، والتفكير العملى فى الواقع ٠

ولكنه حين قامت الثورة ، وغدت تعبيرا عن الجماهير العريضة فى حركتها الصاعدة ، غير مواقفه على التو ، ولم يعد يرى فى السياسة « وحلا » ، وانما شيئا جوهريا ، يمس مصير كل انسان ، ويدخل فى صميم القيم التى يدافع عنها الكاتب أو الفنان ٠

وهذا مثال من أمثلة عديدة صارخة ، وردت فى الكتاب،

تفصح بأجلى بيان عن تنكر الحكيم لأقوال ومواقف سابقة، وتقطع بأنه يلبس لكل حال لبوسها ٠

ولا يستطيع أحد أن ينسى ما دبجه يراع الحكيم من مديح لعبد الناصر أثناء حياته ، وعقب رحيله ، ف خضم الحزن الفاجع الذى شمل الأمة العربية ، ثم تكريسه لحملة الهجوم العنيف عليه بعد ذلك بسنوات قليلة ، مدعيا انه كان فاقدا للوعى ٠

القضـــية الرئيســـية

ينتقل المؤلف بعدذلك الى القضية الرئيسية والتى تعد أحد المحاور الأساسية وهى موقف الحكيم من قضية انتماء مصر ، فنجد انه تراوح كذلك بين الفرعونية والعروبة ، حسب التيارات السائدة ف السياسة المصرية ، التى يحكمها اعتبارات عديدة ، ليس من المفروض على الحكيم أن يخضع لها على طول الخط ، أو ، على الأقل ، ليس ملزما بها ككاتب ومفكر يدرك مسيرة التاريخ ، ويدرك بصفة خاصة ان الآتى ، أى القومية العـــربية ، تســـتوعب الماضى ، الفرعونية ، وليس ضروريا ان تكون بديلا عنها ، فكون مصر عربية لا يعنى بحال اننا سنطيح بمكوناتها القديمة ٠ بل أن هذه المكونات يجب أن تعنى حاضرها العربى ٠

وعلى الغرار نفسه ينبع موقف الحكيم من الديمقراطية

الليبرالية ، ولو أنها تقتضى مناقشة ، ومن ثورة ١٩٥٢ ، فى حالات الهجوم والتأييد ، أو التأييد والهجوم ٠

أما فى محاورات اليمين واليسار التى عقدتها مجلة « الطليعة » المصرية المحتجبة مع الحكيم فى منتصف السبعينات ، فلم يكن الحكيم يعدم أن يجد فى كتاباته السابقة ما يؤكد مواقف دون مواقف ، استجابة للوضع الراهن ، وان كان قد بذل جهدا كبيرا فى هذه المحاورات لكى لا يتقيد بيمين أو يسار ، بدعوى التمسك بالحرية ، وعدم الرغبة فى الخضوع لبرنامج معين لا يحيد عنه ، يمكن أن يفقده استقلال الشخصية ٠

ويختم الكتاب فصوله بتوفيق الحكيم واسرائيل ، فيبين كيف انه كتب سنة ١٩٤٨ يحذر من اسرائيل والصهيونية ، التى تريد السيطرة الصناعية والتجارية على المنطقة ، وتعد للحرب ، بحكم انها تقوم على أهداف استيطانية بحتة ٠

الا أنه فى سنة ١٩٧٩ تنكر لهذا الرأى ، وكتب يقول ان مشاركة اسرائيل لمصر فى المجالات المختلفة سيفيد البلدين ، ويفيض على المنطقة بالخير ، لأن التعاون بين الاكفاء يحقق نتائج طيبة ٠

وجلى انه من الخطل أن يساوى أحد بين مصر واسرائيل ، بين سبعة آلاف سنة من التاريخ والحضارة ، أو خمسة آلاف ، وبين ثلاثين سنة من الاعتداء الغاشم ، ويجعلهما فى مرتبة واحدة من الكفاءة ٠

فكرة التنـــاقض

هذه هى مواقف الحكيم الســـياسية التى تنهض على الرأى ونقضيه ، كما رصدها الكاتب من واقع كتابات توفيق الحكيم المنشورة فى الكتب والدوريات ، ومن واقع أحاديثه، واضعا اياها فى ضوء ملابسات الحياة السياسية بقصــــد استجلاء دوافعها ، ومن ثم يكشف قدرة الحكيم على اعتلاء أمواجها الصاعدة ·

وليس ثمة مآخذ على الكتاب سوى ما يبدو فى كثير من صفحاته من أن المؤلف بدأ سلفا بفكرة التناقض ، ثم حاول ـ بدلا من استنباطها ـ أن يثبتها ، المرة بعد المرة ، باجتزاء فقرات متباينة من أقوال الحكيم ، يدحض بعضها بعضا ، وان كان بينها ما لا يحتمل فى سياقه الأصلى هذه الدلالة ·

ولهذا فقد أصـــاب كما أخطأ ، ذلك اننا اذا طالعنا النصوص الأصلية كاملة ، بشكل استقرائى ، وضممناها فى وحدة عضوية ، لن نجد دائما هذا التناقض ، رغم سلامة النقل عن المتون ، بل قد نجد تماسكا أو اتساقا فى الرؤية والبناء ، على مستوى ما ، على الأقل فى بعض القضايا ، خاصة بالنســبة الى الديمقراطية الليبرالية ، التى فهمها المؤلف على غير معناها ، أو عكس معناها ، لأن الحكيم من غلاتها ، ولم يكن اعتراضـــه عليها منصبا الا على تطبيقاتها السيئة فى بلادنا قبل الثورة ·

لقد وقف المؤلف عند حـــدود العبارات المجتزئة لكى يستخلص المواقف المتناقضـــة ، دون اعتناء بتحليل هذه المواقف تحليلا موضوعيا شاملا ، وتلمس أصولها الفكرية أو منابعها النظرية فى ثقافة الحكيم وحياته والوسط الذى عاش فيه ، واستشفاف العلاقة الجدلية الكامنة فيها ، التى يمكن ان تبررها • فبمثل هذا التحليل وحده ، الذى يتجاوز سطح الأشياء ، كان يمكن أن يستخلص للحكيم موقفا كليا فى مصادره ، أو تصورا واحدا ، قد يتسم بقدر من التجانس ولكنه ـ ان صح ـ تجانس من نوع ما ، يحتمل ، فى لغـة الأدباء والفنانين ، الشىء ونقيضه ، بهدف اثارة الاستفهام عند القارىء ، وتحريك ملكة الابتكار لديه •

عبر هذه الصـــيغة وحدها لن يبدو الحكيم بكل هذا التهافت والانتهازية ، خاصة وان المؤلف يبدأ كتابه بالتسليم بأن الحكيم : « أديب كبير ، وفنان كبير ، ومفكر سياسى كبير أيضا • شغل الناس ، عامتهم وخاصتهم وملأ الحياة الفكرية والثقافية والسياسية ، بأدبه وفنه وفكره ، طوال أكثر من نصـــف قرن ، انعكســـت خلاله أحداث بلادنا ، السياسية والفكرية ، على مرآته ، وهو أحد المفكرين القلائل الذين شكلوا تيارا فكريا ، علمانيا وعقلانيا ، أثر فى تطور الفكر والسياسة والثقافة فى مصر وســـائر اقطار العالم العربى » •

فاذا كان الحكيم بهذا الوزن ـ وهذه قضية ليست محل

خلاف ـ يصبح من المحتم على الناقد أن يكون أعمق نظرا فى التصدى له ، وأكثر تحرزا فى احكامه ٠

وعمق النظر يقتضى التحليل الهادىء ، والنقد الدقيق للافكار النظرية ، فى سياقها الكامل ، وتبين أصولها التى تمزج فيها المثالية بالرومانسية بالواقعية ، لمعرفة جوهر هذا التناقض أو اللاانتماء ، واكتناه خصائصه الخفية ومضمونه، ان فى الخلق الفنى أو الموقف الفكرى الذى أعطى ثقافتنا العربية أعمالا عديدة ترتفع الى مستوى الذخائر الوطنية فى أدب المسرح والقصة والرواية والترجمة الذاتية ، من الصعب أن تضعف قيمتها قبل قرون ٠

واعتقادى أن هذا لن يتأتى على نحو واف الا بدراسة انتاج توفيق الحكيم كله ، كما أشرت ، فى السياسة والأدب والفن ، حتى تتكامل الصورة فى اطارها الصحيح ، بكل أبعادها المتباينة ، والوانها المتناقضة ٠

قضـــية للمناقشـــة (١)

انتهى الدكتور رمســـيس عوض من اعداد كتاب عن توفيق الحكيم من جزئين · عنوان الجزء الأول « صفحات مجهولة من مسرح توفيق الحكيم ١٩١٨ ـ ١٩٣٢ » ، يتضمن ما كتب عن مسرحياته الفجة غير المنشورة ، التى قدمتها فى القاهرة فرقة عكاشة ، وهى احدى الفرق المعروفة حينذاك بعروضها الرخيصة التى تجتذب الجمهور ·

والمسرحيات المتناولة هى على الترتيب : الضـــيف الثقيل ، امينوسا ، العريس ، خاتم سليمان ، على بابا ، المرأة الجديدة ، أمام شباك التذاكر ، الخروج من الجنة ، سر المنتحرة ، حياة تحطمت ، رصاصة فى القلب ·

اما الجزء الثانى فيتناول فقط مسرحية « أهل الكهف »

---

(١) مجلة « الصياد » ، بيروت ، ٣١ أغسطس ١٩٧٤ ·

منذ صدورها بين دفتى كتاب سنة ١٩٣٣ حتى تقديمها على خشبة المسرح القومى فى القاهرة سنة ١٩٣٥(١) ٠

وسيثير هذا الكتاب عند صدوره ، بلا ريب ، ضجة بالغة فى جميع الأوساط الأدبية على مستوى العالم العربى ، لأنه يكشـــف ، لأول مرة ، الخطوات الأولى المتعثرة التى خطاها الحكيم فى فن المسرح ، والهجوم العنيف ، الجائر والمحق ، الذى تعرض له فى بدء حياته الأدبية ، التى يحاول الحكيم اسدال الستار عليها ، كأنها لم تكن ، حتى لا تؤثر على سمعته الأدبية ، بصفته رائد المسرحية العربية ، الذى أرسى تقاليدها فى شكلها الفنى الحديث ٠

ولكن الأبحاث الأدبية التى قام بها الدكتور رمسيس عوض عبر السنوات الأربع الماضية ، واستطاع أن يحصر ويدرس فيها هذه المادة النقدية ، لم تســـتهدف كما يقول سوى « الحقيقة العلمية » التى يجب الا تنطمس ، والتى نجد نظائرها فى الآداب العالمية معترفا ومحتفى بها من قبل النقاد والدارسين والقراء ٠

والكتاب يصحح فى عدد من صـــفحاته بعض النتائج التى وصـــل اليها نقاد جادون مثل الدكتور على الراعى والاستاذ فؤاد دواره ، ويكتشف التطابق أحيانا بين نقد

---

(١) صدر هذا الكتاب عن الهيئة المصرية العامة للكتاب بعنوان « ماذا قالوا عن أهل الكهف » ١٩٨٦ ٠

ناقد مثل الدكتور محمد مندور ، ونقد النقاد القدامى منذ نحو ربع قرن ٠

ان الكتاب فى مجموعه يحاول ان يثبت أن الحكيم كان مضطرا الى مجاراة التأليف المسرحى المبتذل حتى يستطيع أن يجد لنفسه مكانا فى عالم التمثيل ٠ غير أن هذا الوضع كان يسبب له ـ كفنان أصيل الروح ـ تمزقا نفسيا حادا ، بسبب احتقار الناس لمهنة التأليف المسرحى من جهة ، ومن جهة أخرى نظرة عامة النقاد السلبية لاعماله المسرحية المبكرة ، فضلا عن عدم اقتناعه هو نفسه بقيمة ما يقدم ٠

وعلى الرغم من غلبة الاسفاف على النقد بشكل عام فى هذه المرحلة من تاريخنا الأدبى ، فى العشرينات ، الا أن قارىء كتاب الدكتور رمسيس عوض يلمس بدرجة ملفتة للنظر وجود نقاد مبدعين ، على وعى تام بمشـــاكل الأدب والفن ، لا يقل عن وعينا المعاصر ٠

موقف الحكيم

والطريف أن الدكتور رمسيس عوض اطلـــع توفيق الحكيم على المـادة التى جمعهـــا من الدوريات المختلفة المتناثرة ، فتحمس لها فى البداية ، وشجع الدكتور رمسيس عوض على نشرها بنبرة تؤكد موافقته التامة على الكتاب ٠ ثم عاد وطلب منه أن يلخص آراء النقـــاد القدماء الذين هاجموه، ولايوردها علىالنحو المطول٠ ولكن الدكتور المحقق

رفض ذلك ، ليس فقط لأن هذه المقالات تلقى ضوءا على حالة النقد المسرحى فى بلادنا هاتيك الأيام ، وانما تمسك من جانبه بالأمانة العلمية التى تقتضى عدم التصرف فى المادة ، ونشر كل النصوص التى تساعد على ابراز المعالم والقسمات •

عندئذ غير توفيق الحكيم موقفه من النقيض الى يده ، لم يشأ أن يوقعها باسمه ، انكر فيها قيمة هذا البحث

وقد بلغ من استياء الحكيم بعد ذلك أن كتب كلمة بخط يده ، لم يشأ أن يوقعها باسمه ، انكر فيها قيمة هذا البحث العلمى ، واتهم صاحبه بالارتجال ، فى حين يرى آخرون أن هذا الباحث يعد من القلائل الذين وهبوا حياتهم للعلم •

منع صدور الكتاب

ولم يكتف الحكيم بذلك ، بل تدخل لدى دور النشر فى العاصمة ، لمنع صدور هذا الكتاب • وبالفعل رفضت دار المعارف بمصر نشر الكتاب ، الا بعد موافقة توفيق الحكيم الشخصية ، وتلقى المحقق من دار المعارف خطابا مفاده أن الحكيم يرفض نشر الكتاب ، باعتبار انه يتضمن مساسا به •

ونتيجة لموقف دار المعارف احجمت بالتالى سائر دور النشر فى القاهرة عن نشر الكتاب ، ايثارا للسلامة •

كما أن عددا من الأدباء حاول اقناع رمسيس عوض بالعدول عن نشر الكتاب ، حتى لا يغضب الحكيم ·

وهذه هى القضية المتصلة بأصــــول البحث العلمى والنشر ، التى أرجو أن يشارك فيها بالرأى ، على صفحات « الصياد » ، الكتاب والمثقفون العرب ·

هل يملك الحكيم ، مهما كان وزنه الأدبى فى ثقافتنا العربية المعاصرة ، ان يعيد طى هذه الصفحات المجهولة ، لمجرد ان له رأيا مخالفا فيها ؟!

ان محاولة الحكيم أن يحجر على فكر رجل استهلك كل طاقته لكى يؤصل فى الأدب العربى منهجا علميا لا يمكن أن تنهض دراسة خلاقة بدونه ، تتناقض مع القيم والمعانى التى يرتبط اسمه بها ·

لقد وجد الدكتور رمسيس عوض نفسه محاصــــرا . نتيجة لموقف الحكيم من كتابه ، وليس امامه الآن ســـوى حلين لاختراق هذا الحصار المضروب : أما نشر الكتاب على نفقته الخاصة ، وتحمل أعباء مالية لا قبل له بها ، أو تسليم الكتاب الى أحد الناشرين خارج مصر ·

ولايزال حتى هذه اللحظة مترددا ·

وفى دار الكتب المصرية ، حيث يواصل الدكتور رمسيس عوض تنقيباته فى تاريخ أدبنا العربى منذ بداية هذا القرن ، التقيت به ، وسألته عن القضايا الأساسية التى يثيرها كتابه عن الحكيم ، على المستوى العلمى والأدبى فقال :

ـ « كتابى عن توفيق الحكيم ليس تاليفـــا بالمعنى المألوف ، فهو يدخل فى عداد ما يسميه الغربيون Editing

أى التحرير · والتحرير عمل علمى بالدرجة الأولى ، وليس لملمة كما يقول الحكيم · وهو يتلخص فى حصر النصوص ، ثم التعليق عليها · وهذا ما فعلته بالنسبة للفترة المبكرة من حياة توفيق الحكيم الفنية ·

« ولا جدال أن من حق الفنان أن يقول رأيه صريحا ، فيما يكتبه النقاد عنه · ولكنه يتجاوز حدوده المشروعة اذا عن له أن يصادر الجهود التى لا تروقه ·

« ويبدو أن المجاملة فى الأوساط الأدبية بلغت حدا يجعل دور النشر تستأذن كاتبا فى نشر أى نقد يكتب عنه ·

« اننى بطبيعتى اكره الاضواء ، وانفر من الضجيج · ولكنى أرى نفسى فى موقف لا أحسد عليه · أن حبى لأدب توفيق الحكيم عظيم ، ولكن حبى للحقيقة أعظم ·

«لسد ما يعتصر الألم قلبى عندما أرى مشكلتى سببا فى تكدير صـــفو توفيق الحكيم ، وخاصـــة فى هذه السن المتقدمة » ·

وفى ما يأتى النص الذى كتبه الحكيم معترضـــا على الكتاب :

« يلاحظ على هذه الأعمال افتقـــادها الى المنهج فهى لا تسير على المنهج العلمى الموضوعى الذى يجعل لها قيمة علمية للباحثين · وذلك بالحرص على ادراج المقالات حسب تواريخها · وعدم التدخل فيها بالتعليقات الشخصية · مثال ذلك التعليق الوارد فى صفحة ٢٧ الذى يشـــير الى ناقد يسارى أو برج عاجى ونحو ذلك من التعليقات الغريبة التى تنم عن جهل بالجو السائد فى أول العشـــرينات ، وتخرج الموضوع عن كونه عملا علميا يتصل بالببليوجرافيا الى نوع من الكتابات الشخصية التى لا هى بالنقد الأدبى الكامل ولا هى بالعمل الجامعى الجاد · وتصبح مجرد جمع وملمة من هنا وهناك حيثما اتفق بقصد النشر السريع التجارى · وقد سبق عمل ذلك فى كتب نشرت وموجودة فى السوق · فاذا كان هذا هو الهدف فهذا شىء آخر · أما العمل العلمى الجاد الذى يقصد به أن يكون مرجعا علميا باقيا ومطلوبا لكل جامعات العالم فلابد أن تتوافر فيه الموضوعية العلمية والدقة التاريخية والصبر الطويل وعدم تعجل النشر » ·

وهذا نص اعتذار دار المعارف :

السيد الدكتور رمسيس عوض

تحية طيبة وبعد .. فبالنسبة لكتابكم (صفحات مجهولة من مسرح توفيق الحكيم) اتصلت بالاستاذ توفيق الحكيم لأخذ رأيه في مدى موافقته على وضع هوامش وتعليقات على ما يرى الاعتراض عليه أو التعليق عليه من مادة الكتاب فافادني باعتراضه على نشر الكتاب جملة وتفصيلا لما فيه من مساس به .

وتفضلوا بقبول فائق التحية ،،

حلمي مراد

٣ ـ ٦ ـ ٧٢

صفحات مجهولة من مسرحه (١)
الجـذور والثمـار

يتناول هذا الكتاب(٢) للدكتور رمسيس عوض المرحلة الأولى من حياة توفيق الحكيم فى المســـرح ، التى غمرها النسيان ، ولم يعد يذكرها أحد من النقاد المعاصرين ·

وبدايات الكتاب تعد ، عادة ، وثيقة هامة فى التعرف على اتجاهاتهم الصـــحيحة · وهى المدخل الحقيقى نحو الدراسة المتكاملة ، التى تستشف الثمار من الجذور ، خاصة لدى أولئك الذين احتفظوا ، مثل الحكيم ، بكثير من أصولهم الفنية ·

غير أن الأمر فى بلادنا يختلف · ذلك انك ان أردت أن تنبش ماضى أحد الكتاب ، أصيب على التو بالاضطراب ، ورمى فى وجهك قفاز التحدى ، كأن من المفروض ، لا أن يكتسب الانسان النضوج والرقى على مهل ، مع ارتفاع السن ، بل ان يولد عملاقا · أليس الأجدر للانسان أن يرتفع الى القمة ابتداء من السفح ؟!

---

(١) جريدة « الأنوار » ، بيروت ، ١٩ اكتوبر ١٩٧٥ ·
(٢) « توفيق الحكيم الذى لا نعرفه » ، ١٩٧٤ ·

ولأن الثقافة العربية تفتقد مثل هذه الكتب ، التى تضع البواكير المجهولة فى دائرة الضوء ، يعتبر كتاب الدكتور رمسيس عوض رياديا فى مجاله ٠

والحق أنه لولا الجهد الببليوجرافى العظيم الذى قام به لاعداد فهرس شامل للأدب والفن فى مصر فى القرن العشرين، لما تيسر له أن يهتدى ، بهذه الدرجة العالية من الدقة ، الى مصادر هذه المرحلة الضائعة من حياة الحكيم ، التى مضى عليها الآن نصف قرن كامل ٠

فى هذه المرحلة قدم الحكيم على مسرح عكاشة بالقاهرة مجموعة من الأعمال ، المقتبســـة والمؤلفة ، التى تعرض بعضها ، بسبب هبوط مستواها الفنى وتخلفها الفكرى ، لهجوم شـــديد من قبل النقاد المسرحيين ، الذين دفعوا الحكيم ، أكثر من مرة ، للخروج عن صمته ، والرد عليهم ، دفاعا عن انتاجه ٠

الا أن كثيرا من هذا النقد القديم لا يقل فى قيمته وعمق محتواه عن كثير من النقد الذى يكتب اليوم ٠

على أن هذه ليست قضية الكتاب ٠ ان القضية الهامة التى يثيرها ، وتتشابك مع غيرها ، هى موقف الحكيم منه ، بعد أن أطلع عليه ٠

لقد حاول فى البداية أن يقنع المؤلف بالغاء ، أو على الأقل تلخيص ، ما يظن أنه يسىء الى سمعته الأدبية ، من

الآراء النقدية المناهضة ، ولا يستبقى ، بالنص الحرفى ، الا الآراء التى ترفع من رصيده الخاص ٠

وحين رفض الدكتور رمسيس عوض اجراء هذا التعديل لحساب الحكيم ، الذى يخل بمنهج البحث ، ويودى بقيمته العلمية ، أخطر الحكيم مؤسسة « دار المعارف » انه معترض على نشره(١) ٠

وبحكم عضوية الحكيم فى مجلس ادارة « دار المعارف » ـ وهى عضوية ما كان ينبغى استغلالها ـ استجيب الى طلبه ، واعيد الكتاب الى صاحبه ٠

وهكذا عجز الدكتور رمسيس عوض عن الحركة والانطلاق !

ولعلى لست بحاجة الى القول أن مثل هذا الموقف لا يليق بكرامة كاتب ملأت شهرته الاقطار العربية ، بفضل تاريخه الحافل فى ارساء القيم الفنية والفكرية ٠ كاتب وقف دائما ، بضميره الفنى ، ضد أساليب الحجر على الكلمة ، وتمسك دائما ، فى حياته ومؤلفاته ، بالحرية ، والحرية لا تتجزأ ، ورفض فى كتابه الأخير « عودة الوعى » ، أن يكون فى بلاده رجل واحد يعلو على المساءلة ٠ فهل يريد

---

(١) راجع ص ٨٣ ، ٨٤ ٠

الحكيم أن يكون ، فى دنيا الأدب ، ذلك الرجل ، الذى لا تقدم له الا البخور والقرابين ؟!

ولم يكتف الحكيم بذلك ، بل تورط وكتب ، بخط يده ، صفحة ينتقص فيها من الجهد العملى الذى قام به الدكتور رمسيس عوض فى جمع مادته ، على غرار الأبحاث العالمية فى انحاء العالم ، ووصفه بانه مجرد « جمع » و « لملمة » ·

وهذا غير صحيح مطلقا · ذلك أن « الجمع »و«اللملمة» التى قام بها هذا الاستاذ الجامعى المثابر وضحى فى سبيلها بخمس سنين من حياته ، عكف خلالها على الدوريات المضنية ، هى ، كما يعرف أهل الاختصاص ، المقدمة الضرورية لأى بحث خلاق ، يريد أن يضيف شيئا الى المعرفة · وهى تحتاج ، الى جانب النظرة الشاملة ، القدرة على الاختيار الجوهرى المركز ، والتتبع الدقيق للخيوط المهترئة ، والحصر ، والاستغناء ، والتعليق المتفهم ، والاستبصار التام ، من قبل ومن بعد ، بكل ما يتصل بالنقاط المطروحة ، وبسلامة التنظيم ·

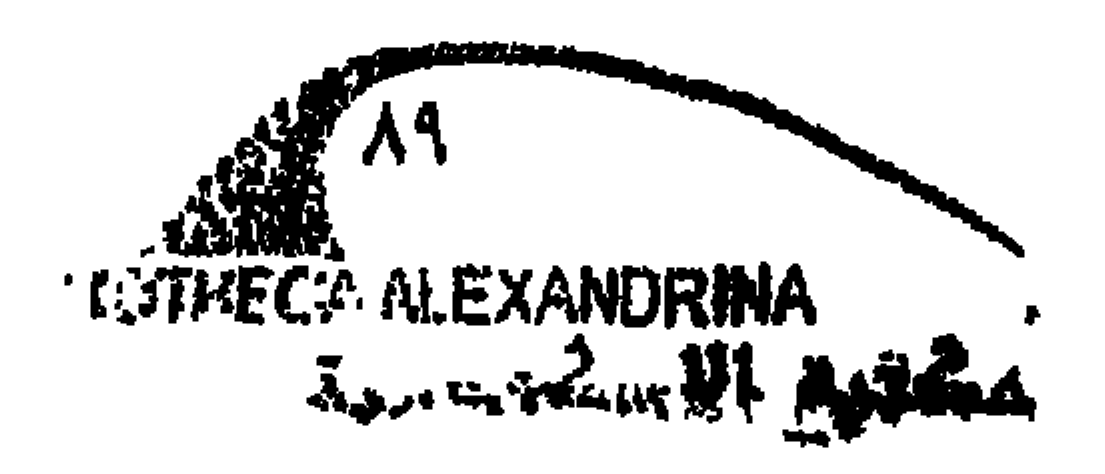
وكتاب الدكتور رمسيس عوض يتخطى ، من الأسطر الأولى ، مجرد «الجمع» و «اللملمة» ، الى عرض الرأى ، والتحليل العميق المترابط ، والفحص والتفسير ، والحكم أيضا · وكلها أدوات نقدية رفيعة أحسن استخدامها الى أبعد حد ·

كذلك يدعى الحكيم ، فى الصفحة نفسها ، أن الدكتور رمسيس قصد من وراء الكتاب النشر السريع التجارى . والذين يعرفون الدكتور رمسيس عوض عن كثب يشفقون على الكد والتعب والفاقة والعذاب الذى يتحمله لاتمام رسالته . ولو أنه أراد الكسب المادى ، لما وقف مثل الرهبان فى هذه الساحة المقفرة ، ساحة الببليوجرافيا راضى النفس ، ثابت الجنان ، يقتطع من دخله المحدود لغرس الخضرة فى الصحراء .

واذكر انى كتبت قبل سنة ، فى مجلة « الصياد » اللبنانية ، أثناء محنة البحث اليائس عن ناشر ، التى خاضها المؤلف وحده ، كلمة واضحة استنكر فيها الوضع كله ، لكى يراجع الحكيم نفسه ، ويعدل عن موقفه . ولكنه لم يبال بشىء . ولم يشأ أحد فى مصر أو خارجها ان يناقش ما جاء فى الكلمة المحتجة .

ولقد كان من النتائج المباشرة لموقف الحكيم من الكتاب ومن صاحبه أن تعذر نشره ، ولم يعد بوسع الدكتور رمسيس عوض الا أن يغامر بطبعه من ماله الخاص ، بعد أن عز عليه العثور على ناشر مصرى أو عربى يقبل نشر كتاب عن توفيق الحكيم ، رغم ارادة توفيق الحكيم .

وهاهو الكتاب يجد ، أخيرا ، امكانية النشر ، وسط العقبات التى اعترضت طريقه ، ولاتزال قائمة . وهذا يعطى الدليل على أن الكلمة الموضوعية لابد أن تصل الى


OTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الاسكندرية

القارىء مهما وقفوا فى سبيلها ، ومهما حاولوا طمسها ، والعصف بها ·

مخـــالفة الرأى
لا تبرر المصـــادرة

لقد ورثنا عن التراث العربى الاسلامى ، والتراث العالمى ، منذ اليونان وعبر النهضة الأوروبية والعصـــر الحديث ، ان مخالفة الرأى لا تبرر مصادرته ، بل تدعو الى تهيئة أنسب الظروف للتعبير عنه ، والا بطلت كل قيمة للفكر والحوار · والثقافة المعاصرة فى أنحاء العالم توسع ، يوما بعد يوم ، من آفاق طرح الآراء المتعارضة ، لأنها الضمان الواجب للحرية الانسانية ، وللتقدم الحضارى المضطرد ·

والحياة الفنية المبكرة للحكيم التى لا نعرفها ، والتى يزيح عنها الدكتور رمسيس عوض النقاب ، ليســـت ملكا لأحد ، ولا لصاحبها ، لكى يحق له منع نشرها ، واسدال الستار النهائى عليها كأنها لم تكن ·

لا · لقد شاركت هذه الحياة الفنية فى صياغة وجدان أكثر من جيل ، ان بالسلب أو الايجاب ، وغدت ملك التاريخ الأدبى المفقود ، وملك الحياة الأدبية المتصلة · ومهما كان الوزن الثقافى المرموق الذى يتمتع به الحكيم ، فهيهات أن يساوره الظن ان ذلك يسوغ له حجب الرأى المخالف ، أو

وضع الأبحاث العلمية تحت رحمته ، ونشرها وفق مزاجه الخاص ·

على العكس ·· ان مثل هذه المحاولة من الحكيم تعد دعاية طيبة للكتاب ، غير مدفوعة الأجر هذه المرة ، قد تضاعف من أرقام توزيعه بين جماهير القراء · كما انها تدعو بشدة الى تحريك الماء الراكد فى الثقافة العربية ، واعادة النظر فيها من جديد ، على الأسس العلمية السليمة ، التى تعبر عن الوجه المتقدم للحياة والمجتمع ·

صـــــدر للمؤلف :

- « العمارة الانسانية للمهندس حسن فتحى »

مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٧ .

- « مواقف ثقافية »

مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٨٠ .

- « سعد أردش رجل المسرح »

دار ألف للنشر ، القاهرة ، ١٩٨٥ .

- « صلاح عبد الصبور : الحياة والموت »

كتاب المواهب : المركز القومى للفنون التشـكيلية ، ١٩٨٥ .

- « نجيب محفوظ : حياته وأدبه »

الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٦ .

- « حسين عفيف »

المكتبة الثقافية (٤٠٦) ١٩٨٦ .

الفهـرس

رقم الايداع ٥٨٤٥/٨٧

الترقيم الدولى ١ ـ ٧ ١٥٠ ـ ٠١ ـ ٩٧٧

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

هذه مجموعة مقالات عن توفيق الحكيم ،نشرت فى حياته فى الصحف والمجلات المصرية والعربية ، تتناول بعض أعماله ، وبعض القضايا التى أثارها فى حياتنا الثقافية ، أو أثيرت حوله . .

كما يتضمن الكتاب مقالا مجهولا بقلم الحكيم ، له أهميته الخاصة فى مجال تبسيط شكل الكتابة العربية ، نشر منذ أكثر من نصف قرن،ولم يجمعه الحكيم فى كتبه

الكتاب القادم : -

الراديو ذلك الصندوق ال

بقلم عبد الرحيم الرفاع

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

٣٥ قرشا

Bibliotheca Alexandrina
0697340
786
9
55f